

الكتاب العربي السعودي ٢٧

حمزه شحاته

الرجولة عماد الخلق الفاضل

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

الرجولة عماد الخلق الفاضل
حمزة شحاتة

مقدمة [1]

بقلم الأستاذ عزيز ضياء

إخواني من الشيوخ يذكرون المحاضرة التي ألقاها حمزة في جمعية الإسعاف في شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين.. ولا شك أني سعيد الحظ حين تلقيت هدية الدكتور منصور إبراهيم الحازمي وهي الجزء الأول من كتابه: (معجم المصادر الصحفية) عما نشر من المقالات والقصائد والبحوث في جريدة أم القرى في الفترة من سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين إلى سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وستين. وأجده يمدني بما لم يكن في الوسع أن أذكره إذ يقول في الصفحة الثانية والخمسين: (أما قلة المحاضرات قبل عام 1936م فيرجع في ما يبدو إلى عدم وجود رابطة تجمع بين الناشئة من الأدباء المثقفين) ثم يقول: (ولعل هذه الرابطة قد بدأت تبرز إلى الوجود عندما تأسست جمعية الإسعاف الخيري بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وخمسة وخمسين، وهي السنة التي شهدت بدء النشاط الثقافي في إلقاء المحاضرات العامة. وقد رأينا جمعية الإسعاف تجتذب الكثير من الأدباء والمفكرين والأطباء والعلماء.. ولا شك أن من يؤرخ للحركة الثقافية في البلاد السعودية، لا يستطيع أن ينسى الدور المهم الذي لعبته هذه الجمعية الطبية الخيرية، والتي تأسست بعد سنوات قليلة من تأسيس الحكم السعودي في الحجاز).. وينهي الدكتور منصور إبراهيم الحازمي هذه الملاحظة بقوله: (الطب، والدين، والقضايا الإسلامية، والتاريخ، والتراجم..). ثم يضيف: (وهناك بعض المحاضرات التي تناولت موضوعات أخرى كالأدب والصحافة

[1] - هذه المقدمة أخذت من كتاب "حمزة شحاتة.. قمة عرفت ولم تكتشف" للأستاذ عزيز ضياء الصادر في سلسلة المكتبة الصغيرة التي يصدرها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي. وقد صدر برقم (21) عام 1397هـ.

والاجتماع والاقتصاد والتعليم ولكنها قليلة إذا ما قيست بعدد المحاضرات التي تناولت الموضوعات الرئيسية الثلاثة التي ذكرناها) وفي الصفحة التاسعة والعشرين بعد المائتين، ضمن قائمة (المحاضرات) يذكر الدكتور منصور ما يشير إلى أن جريدة أم القرى قد نشرت (خبراً) عن محاضرة ألقاها (حمزة شحاتة) بعنوان (الخلق الكامل عنوان الرجولة).

ولم تنشر هذه المحاضرة كما سبق أن أشرت ورفض حمزة يرحمه الله أن يصدرها في كتاب -مستقلة أو مع مجموعة من شعره أو نثر- ولكنها ظلت المحاضرة التي لم ينسها أحد سواء ممن سمعوها منه أو سمعوا عنها ولعلهم ما يزالون يسمعون عنها حتى اليوم.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة، نلتمس بها نوعاً من وزن الأسلوب الذي كتب به حمزة هذه المحاضرة وتمعن مستوى الأستاذية في اللغة، نحواً وصرفاً، ومفردات، وقدرة على أداء المعنى، وانتقاء الألفاظ التي يراعى فيها دقة الجرس الموسيقي في اللفظ بالنسبة للجملة، ثم منهج التحليل للموضوع الذي عالجه وهو كما أراده لا كما اقترح عليه، وكما نشرت عنه جريدة أم القرى... فقد عدل عن (الخلق الكامل عنوان الرجولة) واختار (الرجولة عماد الخلق الفاضل).

والتماس الوزن هنا يعود بنا إلى ما قلته من أن حمزة يبدو وكأنه قد ولد ودرج على تراب هذه الأرض قمة شامخة.. ولا أقول ولد عبقرياً، إذ خصيصة العبقري، أن يولد بطاقة قد تبكر في الظهور وقد تتأخر إلى أن يتاح لها التفجر والاندفاع بينما حمزة، قد بدأ منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة قمة لا تدري كيف تكونت...؟

ولد حمزة، في عام ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين وألقى هذه المحاضرة، في عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين فهو يومها قد أتم الثلاثين من عمره... ونحن نعلم أن هذه المحاضرة ليست أول أعماله، فقد سبق أن ذكرت أنني عرفته في عام ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين -أي يوم كان لا يزال في الثالثة والعشرين- ويعرفه قبلي الأستاذ (عبد الوهاب آشي) والأستاذ (محمد سعيد عامودي) والأستاذ (محمد حسن عواد)... وكلهم عرفوه شاعراً في الذروة وناثراً يمتلك ناصية اللغة والأسلوب امتلاك أستاذية تعمّق فنها وعلمها في الأمهات من المصادر.

ومرة أخرى، أجد نفسي مضطراً أن أتساءل متى؟ وكيف؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التي تفترض أنه بلغها في العشرين.. ومن المفروض أنه لم يكن الوحيد الذي تخرج في مدرسة الفلاح ولم يكن أيضاً الوحيد الذي ابتعث إلى الهند. لم يكن الوحيد الذي قرأ ما قرأناه وظللنا نقرأه من مصادر الثقافة وينابيع الفكر.

يستطيع من يتفرغ لبحث أدب حمزة، في ما نرجو، أن يجمع من شعره، ونثره، وعلى الأخص رسائله، أن يجيب بما أسميه اكتشافاً للقصة، التي أقدِّم اللمحة عنها في هذا الحديث، واللمحة، لا أكثر ولا أقل.

بلغ عدد صفحات هذه المحاضرة مائة وإحدى وعشرين صفحة، بخط يده على ورق مقاسه (متوسط) واستغرق إلقاؤها أكثر من أربع ساعات وقوطعت بالتصفيق أكثر من ثلاثين مرة واجتمع لسماعها عدد من الناس قل أن اجتمع لسماع أي محاضرة سبقتها في جمعية الإسعاف.. فماذا في هذه المحاضرة؟؟

لا يتسع الوقت لعرض الكثير.. ولكني أستطيع أن أقدم النتف، والقطوف التي تلمح، أو تلقي بعض الضوء على الكثير مما فيها مما لا أجد له اسماً أكثر أو أقل من أنه فكر، وأدب، وفلسفة، وفن.

ويبدأ المحاضرة بقوله: (عندما يكون الإقدام على المخاطرة ضرورة، لا يعد شجاعة).

ويعلق على هذه الضرورة، فيقول: (للضرورة في حساب الحياة أبعد الأثر. والتطور ما لعب دوره الخطير في تكميل أسباب الحياة الاجتماعية إلا على أساس الضرورة الحافزة).

(إن حديثي في الواقع، ولا أسميه محاضرة، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل، أو كعماد للرجولة، لكني اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلاً فيكون (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لا الكامل، فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة ووهمها الذي ينساق أبداً في طلابه، وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهي، وقوافل الأحياء تسير ما يثقل خطاها الزمن الجاهد، وما دام التغير الدائم، دأب الحياة وسبيل ما فيها، فهل نقول إن شيئاً كمل، قبل أن يوفى على غايته ويبلغ تمامه؟).

ويضيف، وكأنه يعتذر عن (زحزحة العنوان) فيقول:

(وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية، بيد أني ألفت أن أطلق لفكري عنانه.. فهذا عندي أخلق، بأن يجعلني أكثر شعوراً بحياتي، وفهماً لها، وأنا طامع بعد، في أن تحمدوا لي نتائج هذه الحرية إن شاء الله).

ثم يفلسف ألفته في إطلاق العنان لفكره فيقول:

(لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة، لأن حظ الصفات والمبادئ والنزعات يرتبط دائماً بحظ الداعين إليها والمتصفين بها من النجاح. هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم فقالوا كثيراً ما معناه:

الناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل[2]

ليس هذا حظ الأحياء فحسب، بل حظ المبادئ والأغاني والنظريات، والفضائل وحظ موقفي بينكم الليلة...).

ويمضي فيقول:

(وأنا أريد التجريد، والتعرية كباحث، لا كمحاضر، فإني لو قصرت كلامي على الرجولة أو على الخلق الفاضل، خشيت أن يتحول حديثي إلى موعظة، لا تعدو أن تكون تمدحاً حماسياً بالفضائل دون تحليلها وردها إلى مصادرها، وتحديد قيمها ومعاييرها، وأثرها في صميم الحياة، وعلاقتها بالنفوس).

والتجريد مبدأ قديم لي، وهو مرضي الذي لا أشفى منه، عرفني به من عرفوا طريقتي في الحياة ومن قرأوا نظراتي القديمة في الخير والشر، وفي الفضائل والرذائل، وفي الحب... وفي الشعر.

([2]) – قلت (سرمد حاتم شكر) : الشعر للقطامي ،في ديوانه ص 25 (كما في "الدر الفريد وبيت القصيد" لمحمد بن ايدمر ح10/ ص145) ، ومعناه : من أصاب مالا قيل له ما يشتهى ولا يخالف، ومن تجاوزه المال خولف فى كل شيء ولعن. كما في " أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)" (361/1)

(فإذا ظن ظان أن في ما أقوله الليلة خلطاً أو إطلاقاً أو شذوذاً، فإنما يكون هذا الظن معقولاً لا أضيق به، فهو عندي شبيه بالنظرة إلى مجهول لم يتكشف، لا إلى مجهول أخذ سبيله في التكشف والوضوح).

ويمضي بعد هذه المقدمة القصيرة، في ما يشبه التحليق تارة، والغوص تارة، وراء موضوعه، بحيث يرينا دنيا مترامية الأطراف، تلتف فيها خمائل الفكر، وتتفتح في ساحاتها مساتير الحقائق وتتلألأ في سمائها وأفلاكها أنهار من الضوء تمعن في أبعاد سحيقة، قد تحتاج لاستيعابها إلى منظار مقرب يسعفك بالتفاصيل ومقومات البناء والتكوين وتسرف في الاقتراب والإشعاع، حتى تبهر البصر، وترهق أو تزلزل ما استقر في الذهن من القواعد والأسس للكثير من المسلمات والبديهيات.

وقد رأينا في هذه المقدمة على قصرها، مستوى الأسلوب، الذي سبق أن تحدثت عنه. وما أظن أن أحداً من الكتاب في المملكة، وفي غيرها، تلك الأيام قد بلغ هذا الأوج من الجمال والترابط وتوخي جرس اللفظ في اتساقه مع الجملة، وهذا يعود إلى الأستاذية، التي لا تقف عند حد المعرفة من اللغة ودقائقها ومن نحوها وصرفها ومناهل البلاغة ومآتيها، وإنما تتخطى كل ذلك إلى فنية الأستذة إذا جاز التعبير.

مسيرته الثقافية

ونعود إلى الخلفيات الثقافية في حياة الشاعر، وفي حياة رصفائه في تلك الأيام.. ولا أجد بدأ من وقفة قصيرة عند لطفي السيد باشا، فقد كنا نتسامع بعبقريته وعلمه وفضله على العلم والعلماء والأدب والأدباء، والفكر والمفكرين.. كما كنا نتسامع عن ترجمته لكتاب (السياسة) لأرسطو طاليس... عن الترجمة الفرنسية لبارتي سانتيهيلير... فنتمنى أن نرى هذه الترجمة مطبوعة.. ولم تطبع إلا في عام 1947م وأذكر أني كنت في القاهرة وكان حمزة رحمه الله قد استقر فيها. فما أسرع ما أخذنا نتدارسه معاً.. فينقضي الليل، وينام من في البيت من الأهل والأطفال... ويستيقظون في الصباح ليجدونا ما نزال كما تركونا في

الساعات الأولى من الليل.. وأطباق الرماد طافحة بأعقاب السجاير. وأكواب الشاي تتثاءب فراغاً وحلق كل منا يتقصف جفافاً، فلا نكاد نلمح من استيقظ، حتى نستنجده بطلب شاي جديد، لنبدأ أو لنواصل الحديث عن أرسطو، وعن ذلك الغرض البعيد، الذي استهدفه (لطفي السيد) من ترجمة هذا الكتاب بالذات ومقدمة سانتيهلير فيه على الأخص.. بل ذهبنا إلى أن لطفي السيد لم ينقل الكتاب إلى العربية، إلا لينقل إليها هذه المقدمة.

وأدع جانباً تلك الدفقة الكبيرة من القصص التي نشط لنقلها إلى اللغة العربية أساطين فن الترجمة في مصر، من أمثال المرحوم الأستاذ (إبراهيم عبد القادر المازني) في قصة (ابن الطبيعة) للكاتب الروسي المغمور (هاتزيباتشيف)، وقد نقلها المازني عن الانجليزية. ولهذه القصة في حياتنا، تلك الأيام أثر لا ينسى، فقد كان يطيب لحمزة شحاتة رحمه الله، أن يسمي كلاً منا بأسماء أبطال القصة، ويختار لنفسه بطلها الأول أو الأظهر الذي تدور حول حياته القصة كلها، وهو "سانين"، واختار لي اسم "يوري" ولست أذكر بماذا سمى بقية المجموعة من الأصدقاء. وقد نشر المازني -بعد أكثر من عشر سنوات- قصة بعنوان إبراهيم الكاتب اتهمه بعض النقاد بأنه قد سرقها من (ابن الطبيعة). وقد قرأنا القصة، واستسخفت أنا رأي هؤلاء النقاد إذ لم يكن في وسع المازني أن يستغني أو أن يتخلى عن أسلوبه في ما يكتب، من أدبه أو من الآداب التي ينقلها إلى العربية. وكانت وجوه الشبه بين القصتين، تنحصر في هذا الأسلوب الرفيع الذي عرف به المازني رحمه الله.

ومن القصص التي لا بد أن تذكر، وتعتبر من الأسس في خلفياتها الثقافية، قصة (تاييس) و (الزنبقة الحمراء) لأناتول فرانس. وكان مما دار بيني وبين (حمزة) عن أناتول فرانس في هاتين القصتين، أن إنسانية فرانس، ومعالجته لموضوع الفحش والطهر، بالنسبة لتاييس، والراهب يافنوس، قد انطوت والتفّت أو هي اندثرت في الجو الخاص الذي تدور فيه أحداث الزنبقة الحمراء، وأن حريته المطلقة التي مارسها في تصوير (تاييس) الغانية. ثم (تاييس) القديسة قد جمدت جمود الكريستال على الموائد المترفة، وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء في حفلات العشاء التي يدور حولها الأبطال في (الزنبقة الحمراء) ومع

ذلك، فلم نكن نملك إعجابنا بأسلوب فرانس وتصويره الرائع للصراع الرهيب الذي ظل يعانيه الراهب (بافنوس) مع أفاعي الجنس التي تنهش صدره. والذئاب الجائعة في أعماق نفسه المحرومة من مطلبها الغريزي.. كان صورة أخاذة، عبقرية الملامح والألوان والسمات، لقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل إلى أن تقف أمام ريشته وأفكاره أية سدود أو قيود. وأذكر كيف كنا نعض أصابعنا أسفاً على جهلنا باللغة الفرنسية. لنقرأ المزيد مما كتبه (أناتول فرانس) ولم يطل بنا الانتظار، فقد ترجم له من لا أذكر اسمه الآن -وليس من أعلام الترجمة- كتاباً باسم (حديقة أو مائدة أبيقور) فيلسوف اللذة المعروف ثم وقع في أيدينا كتاب آخر للأمير (شكيب أرسلان) عن (أناتول فرانس في مباذله) وبذل توهمنا أننا قد استكملنا بعض ما كان ينقصنا عن الإلمام المعقول بأدب (أناتول فرانس). ومن المؤسف أننا لا نجد من يهتم بإعادة طبع هذه الكتب اليوم، لنعود إلى شرائها، بعد أن بعتها في مزاد.

وإذ أذكر هذه القصص، لا أنسى، ولا ينسى رصفاؤنا الشيوخ، رواية نقلها إلى العربية (طانيوس عبده) تحت عنوان (أهوال الاستبداد) لكاتب روسي نسيت اسمه الآن .ثم (آنّا كارنينا) لتولستوي ولم تكن قصة (الحرب والسلام)، وهي من أشهر أعمال تولستوي، قد نقلت إلى العربية بعد. ولكن لم نفتأ أن نقرأ ما يكتب عنها في المجلات والصحف وعن تولستوي نفسه. وما زلت أذكر كيف كان تطلعنا إلى إنتاجه يزداد ويحتدم وبالأخص يوم قرأنا كلمة نسبت إلى (بيرنارد شو) يقول فيها عن كتاب لم ينقل إلى العربية باسم (ما هو الفن؟) لتولستوي: (ها نحن نسمع صوت أستاذ بحق)... وبالتتبع ربما كانت تحفل به مجلات تلك الأيام. عن أعاظم كتاب الأدب العالمي. استطعنا أن نكوّن حصيلة لا بأس بها من المعلومات والأفكار كثيرين ممن ذكرت وممن لا يتسع الوقت لذكرهم في هذا الحديث.

أما أدب المهجر، وعلى الأخص من أدبائه (جبران خليل جبران) و (إيليا أبو ماضي) و (ميخائيل نعيمة) فليس بيننا من ينكر أثرهم في بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية. ومثل هذا الأدب وفي بداية تلك المرحلة أيضاً، يمكن أن نذكر كتب (مصطفى لطفي المنفلوطي)... ولكن ما كدنا نوغل في الأمهات من كتب الأدب العربي. وفي الواقع من المنقول إلى العربية من الأدب العالمي، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر صاحبة

الفضل الكبير، في هذا النقل، حتى أخذنا نشعر بأن أدب المهجر يمكن أن يوقف المشاعر ويوجهها نحو أجواء الفن، ولكنه لا ينميها، ولا يبني العضلات الفكرية القوية، وأن أدب المنفلوطي يمكن أن يصلح للشداة والناشئين إذ يغري بالقراءة، ويعين على تكوين محصول قوي أحسن المنفلوطي اختياره من مفردات اللغة العربية، التي يسهل تناولها وربما هضمها في قصة كماجدولين أو سيرانودي برجراك. بينما يتعذر هذا الهضم على الشادي والناشئ، إذا ما قرأ "البيان والتبيين" للجاحظ، أو "مقدمة ابن خلدون" أو أي كتاب لأبي حيان التوحيدي.

أطلت دون شك، في ما يبدو استطراداً، وجنوحاً عن الحديث عن القمة التي لم تكتشف، ولكني أتحدث عن مسيرة ثقافية عشناها مع الفقيد في ظروف، كانت فورة الشباب، ونوازع الطموح ومشاعر الايمان بحق الوطن علينا، تخفف من عسرها ووعثاء الرحلة ووعورة مسالكها، مع ضعف الموارد وانعدام أسباب الدعة والرخاء... بل وانعدام الضوء الذي نسهر به عاكفين على القراءة والبحث والمتابعة باستثناء (الفانوس الهندي) الذي نفضِّل الحجم الصغير منه، لندخله معنا في "الناموسية"، رغم شدة الحر، واحتباس النسمة، هرباً من البعوض، وإصراراً على القراءة والدرس مع عدم التخلف عن العمل في الوظائف التي نشغلها في أوقات الدوام المقررة. وقد كانت تعرف البداية في الصباح، ولا تعترف بالنهاية، ما دام هناك عمل يجب أن يؤدى، ولو استغرق ساعات طويلة من الليل. ولا أستطيع أن أؤرخ لدخول ما يسمى (الأتريك) في حياتنا ولكني أذكر فرحتنا به حين أصبح من الميسور شراؤه، بفتيلته وغازه، وعملية نفخه وشحنه بالهواء. ولا أخفي أننا كنا نشعر بالزهو، حين نستعد به لاستقبال الزائرين والضيوف، ولعل انتفاخة الزهو ونحن نراه يضيء (المجلس) كانت لا تقل عن انتفاخ الأتريك نفسه، مع إحساس بأننا -والحمد لله- قد أخذنا طريقنا إلى ما كنا نسمع عنه، ولا نرى له أثراً من حضارة القرن العشرين.

وبعد.. فقد قلت إن حمزة شحاتة يبدو وكأنه قد ولد قمة منذ درجت قدماه على تراب هذه الأرض. وللقارئ أن يسمي هذا مبالغة وإسرافاً في التقدير، ولا أنكر أن التعبير ينبض بهذا المعنى ولكن عندنا من الشواهد، ما يجعلنا نتساءل ونحن نستعرضها: متى؟؟؟

وكيف؟ استطاع حمزة أن يهضم كل الذي هضمه وتمثله من ثقافات، مصادرها التراث العربي القديم من جهة، ثم ما شهده الأدب العربي من تطور خلال فترة يمكن أن تحدد بما لا يقل عن قرن من الزمان من جهة أخرى.

صحيح أنه كان يقرأ ما نقرأ.. وصحيح أن ما كان يصل إلى أيدينا من الكتب، كان يصل إليه أيضاً. ولكن، كيف تأتى له ذلك النضج العقلي والفني وهو بين مرحلة الصبا الغض والشباب في فجره دون ضحاه؟

سادتي -إخواني

عندما يكون الإقدام على المخاطر ضرورة، لا يعد شجاعة، ومعنى هذا أن النسبية تدخل في حساب الحقائق الفكرية.

والضرورة هي التي تدفعني اليوم أن أقف منكم هذا الموقف على إيماني بضآلة شأني في ميزان الفهم العام... فما كان يسعني أن أرد لجمعيتكم المخلصة طلبين في عام واحد.

وللضرورة في حساب الحياة أبعد الأثر. ونعتقد أن التطور ما لعب دوره الخطير في تكميل أسباب الحياة الاجتماعية إلا على أساس الضرورة الحافزة.

إن حديثي في الواقع ولا أسميه محاضرة، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل، أو كعماد للرجولة، لكني اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلاً فيكون "الرجولة عماد الخلق الفاضل" لا الكامل فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة، ووهمها الذي تنساق أبداً في طلابه، وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهي. وقوافل الأحياء تسير ما يثقِّل خطاها الزمن الجاهد.

وما دام التغير الدائم دأب الحياة وسبيل ما فيها، فهل نقول إن شيئاً كمل، قبل أن يوفى على غايته، ويبلغ تمامه؟

وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية، بيد أني ألفت أن أطلق لفكري عنانه فهذا عندي أخلق بأن يجعلني أكثر شعوراً بحياتي، وفهماً لها، وأنا طامع بعد في أن تحمدوا لي نتائج هذه الحرية إن شاء الله.

لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة، إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة، لأن حظ الصفات والمبادئ والنزعات يرتبط دائماً بحظ الداعين إليها، والمتصفين بها، من النجاح والفشل.

هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم، فقالوا كثيراً ما معناه:

الناس من يلق خيراً قائلون له .. ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ليس هذا حظ الأحياء فحسب، بل حظ المبادئ والأغاني والنظريات والفضائل، وحظ موقفي بينكم الليلة أيضاً.

وأنا أريد التجريد والتعرية كباحث لا كمحاضر، فإني لو قصرت كلامي على الرجولة، أو على الخلق الفاضل، خشيت أن يتحول حديثي إلى موعظة لا تعدو أن تكون تمدحاً حماسياً بالفضائل، دون تحليلها، وردها إلى مصادرها وتحديد قيمها، ومعاييرها، وأثرها في صميم الحياة وعلاقتها بالنفوس.

والتجريد مبدأ قديم لي أو هو مرضي الذي لا أشفى منه. عرفني به من عرفوا طريقتي في الحياة ومن قرأوا نظراتي القديمة في الخير والشر. في الفضائل والرذائل، وفي الحب، وفي الشعر.

فإذا ظن ظان أن فيما أقوله الليلة خلطاً أو إطلاقاً أو شذوذاً، فإنما يكون هذا الظن معقولاً لا أضيق به، فهو عندي شبيه بالنظرة إلى مجهول لم يتكشف، لا إلى مجهول أخذ سبيله في التكشف والوضوح.

* * *

كان الحديث عن المسائل الجنسية، وعلاقتها بحياة الإنسان الفكرية، وأخلاقه، وميوله، وعقده العصبية ووجدانه؛ أول ما فوجئ به الناس مساً لمواطن العفة والتقديس في نفوسهم وعقائدهم الفكرية، حتى نالت المسألة الجنسية نصيبها من الفهم والتقدير، فإذا تناولها اليوم باحث بالتوليد والتكرار والتمحيص والاكتشاف، لم يلق العنت الذي لقيه الباحث الأول.

وأنا لا أزعم لكم أني الباحث الأول في الفضائل والرذائل، ولكني أظن أني أول من يتناول البحث فيها بهذه الطريقة التجريدية وبهذا الأسلوب العاري.

والتجريد في مرحلته الأولى، رد للمسائل إلى أصولها المفروضة، وإلى أساساتها العارية. فهو يمس العقائد الفكرية -لا شك- ويهدم منها شيئاً، ليقيم شيئاً محله.

وهو فرض ينازل حقيقة تحجر بها الاصطلاح، وهم ينازل اعتقاداً، وشك تعارض به معرفة.

وما زالت النفوس أضعف استعداداً لقبول المفاجآت التي تحاول أن تنتزع من معتقداتها ومشارعها، شيئاً له قيمته وقداسته، وله صلابته العنيدة.

وشأن الجديد في هذه السبيل، أن يكون رمز الإقلاق والبعثرة، وما يهون على النفوس والأفكار أن تنزل عن قوانينها الأدبية، وتقاليدها وعقائدها، إلا مكرهة.

والجديد متى استطاع أن يقيم الشك في نفس، كان قد غزاها الغزوة الأولى ولكن هذا ليس سهلاً كما يظن.

فقد يكون هدم قانوني رياضي، أو هدم قاعدة علمية، أهون كثيراً من مس عقيدة في رجل، أو في فضيلة، بل هو هكذا.

قلب أينشتين -العالم الألماني- بعض القواعد العلمية والرياضية رأساً على عقب، فما عبأ به الناس، ولا تنكروا له. ولعله لو اقترح تحويل كنيسة مهملة إلى ملعب رياضي، لمس بهذا الاقتراح أطراف مشكلة قد تجر إلى الاعتداء عليه.

إذاً نحن نعرف الخطورة في اعتراض عرف متصلب، حتى في أهون المسائل النظرية المتعلقة بعقائد الفكر والنفوس، فلماذا نجازف؟..

إن المجازفة الليلة ضرورة، ومن الخير أن نستفيد من قوانين الضرورات المرتجلة، لنكون باحثين مجازفين. فالمجازفة في تاريخ نشأة الحياة، وفي تاريخ تطوراتها، قادت روادها إلى القمم الشامخة وأعانت على كشف مساتير الوجود والفكر.

والفكر المؤمن بنظرته إلى شيء نظرة خاصة، لا يسعه إلا أن يؤدي الأمانة.

ونحن لا نحلم بالقمم الشامخة، ولكننا نرجو أن نصحح مقياساً من مقاييسنا الفكرية، ولو بالشك فيه، لأن الركود في تاريخ أمة تتطلع إلى ما وراء حدودها الجامدة، شر من الخطأ.

لهذا ستكون نظرتنا إلى الفضائل -على أن أساسها التجريد القاسي- نظرة من يريد أن ينطلق بها من حدودها الضيقة المتصلبة، إلى حدود رحيبة من الشك والوسواس، خاضعاً لسعة إدراكه لأطرافها، وخفاياها ورموزها، وعلاقتها بأشباهها، وهو لا يفعل بها هذا ليضعفها، بل ليبلغ بها أبعد حدود القوة والاحتمال.

والناس يمتحنون قواهم الجسدية، بألوان عنيفة من الرياضة، والكد المصطنع، لتمرينها على احتمال الأعباء، ولشحذ طاقتها، ولتقوية مراكز الإرادة والسلطان فيها. على أن الرياضة في ذاتها -كمشقة- نصب للجسم، وانتهاك صريح لحرمة نشاطه المذخور.

وسأكون الليلة أكثر حرية. وإن كانت أفكاري ونظراتي، ستفقد الترابط والانسجام، لضيق المجال الذي يشعر به باحث أو محدث، يجيء في غبار السادة المجلين قبله. فهنا تنتصب الموازين الدقيقة، وتضيق دائرة التسامح والتغاضي. فقد عرفت الأذهان أنماطاً عالية من التفكير وأنماطاً قوية من أساليب القول المجود، كونت ذوقاً أرستقراطياً، لا يرضيه من الجمال إلا أن يكون فتنة تهز المشاعر، ولا من القول إلا أن يجيء عبقرية.

وهذا لون من ألوان الإدمان الأدبي، بل هو عندي الليلة شر ألوانه، فإن الأذواق متى ألفت أن تصيب لذتها من جمال محدود، تاقت بعد ألفته، واستصفاء معانيه. إلى ما يكمن وراء حدوده الظاهرة، وإلى ما يقودها بعيداً عن هذه الحدود، على وفاق نصيبها، من سعة التخيل، وجشع الإحساس، والمقدرة على تصور الصور واستحضارها وانطلاق الميول.

وإدمان النظرة إلى صورة جميلة، يفقدها شيئاً من تأثيرها القوي كلما تجدد إليها النظر المشغوف، وارتوى منها الحس المنهوم، حتى تفقد مقدرتها على التأثير والأداء.

وإنك لتعجب بالمنظر يفتنك، ويلقاك بألف معنى. أول ما تلقاه فما تزال نفسك دائبة في تحليل معانيه وإذابتها، حتى تنتهي بها إلى الإصغاء والإفلاس، وتكون قد حولتها إلى دمك شيئاً منه، فما تلبث أن تتصرف عن هيكلها العاري، وقد تركته مادة جامدة، وأضفت إلى قانون الجمال وفهمه، والإحساس به في نفسك، مادة جديدة، لا يبلغ بها الرضا عندك، إلا أن يضمن لك المنظر الجديد، معنى جديداً، يزيد عما تعرف.

ولبعض النفوس والأذواق قوة النار واستشراؤها، شأنها في الإذابة شأن النار، ما يستقيم فيها شيء إلا إن كان في معناه معنى الصخر والحديد وهو بعد ذاهب لا يدوم، وذائب ما يبقى!

فإذا خفت الليلة، فإنما أخشى خطراً عرفت مشابهه في نفسي، فإن كتبت لي السلامة - ولا أتوقعها- فإنما تكون أثر الحظ، وخارقة من خوارقه المعروفة.

ولست أرجو أن أصيب النجاح في مثل هذه السبيل الجانحة، لكنها الضرورة، وما كنت لولاها أوثر أن أتكشف لكم عن سرائر ودخائل ضئيلة تخيب أملكم فيَّ، وأملي في نفسي.

ولقد يواجه المرء خطراً لا معدى له عن مواجهته، فتكتب له النجاة. فيقول الخليون: إنه شجاع، فإن أسلم روحه قالوا إنه الجهل والتهور واختلال القياس، أو ذهبوا يعددون منادح الخلاص التي يرون أنه كان خليقاً بأن يتفطن لها.

ولا شك عندي في أن سراوة مظهري ستجني عليَّ كثيراً، وتردد اسمي بين أسماء إخواني الأدباء، يوهمكم فيَّ، ويعدكم بما أعجز عن تحقيقه. ورب قائل يقول: أليس هذا عصر الانتهاز والإعلان؟ فأقول له: بلى، ولكنه عصر المنطق والوزن والتقدير والمقارنة أيضاً!؟ وإنما يقاس النجاح فيه، بما تعد به الطاقة المتخيلة، والإمكان المفروض. والناس إن أدهشهم الرجل العادي، لأنه لعب على الحبل بمهارة، لم يقنعوا من البهلوان الشهير إلا بما يدخل في حدود السحر من الأفعال الخارقة.

ونحن نفرح بالطفل يهدينا ما لا يساوي في ميزان المادة شيئاً، أضعاف ما نفرح بهدية غني تساوي العشرات؛ ذاك أنّا ننظر من وراء القيم والمعايير، إلى الطاقة والإمكان، وإلى بواعث الشعور ونسبتها؛ فالكبير إن أهدى فسبيل مثله أن يفعل، أما الطفل فسبيله الأثرة والشح، فهو إن أهدى شيئاً فإنما يهديه من نفسه، وإنما يعبر بهذه الدلالة عن عاطفة ساذجة في حرارة اندفاعها، وصدق انفعالها، غير ناظر إلى الربح والبذل.

والكبير يقدر الغاية، ويرسم الوسيلة إليها، أو يؤدي الدين، أو يفتتح السبيل، وميزانه في ذلك ميزان الحساب الدقيق، إما في اعتبارات المادة، أو في اعتبارات الشعور بمطالب القلب والفكر، ونوازع الأريحية والوجدان فشأني الليلة أمامكم، هذا الشأن. وما أود أن تكون خاتمتي بينكم موتاً، بل انتحاراً. فالانتحار -هنا على الأقل- أضمن لتحقيق معنى الاختيار من الاستسلام للموت. ولعله أدل عندي على الحيوية، وتركز الإدارة، ووضوح الفكرة، وقديماً قالت العرب "بيدي لا بيد عمرو" و:

"تأخرت أستبقي الحياة، فلم أجد .. لنفسي حياة، غير أن أتقدما"

* * *

ليس من السهل أن يتكهن باحث بالعهد الذي عرف فيه الإنسان الخير والشر، وإن كانت معرفتهما -على الأرجح- متصلة بحياته الفِطرية الأولى، أو منتزعة من صميمها.

وإذا كان صعباً أن يحدد التاريخ الذي عرف فيه الإنسان، الزراعة وزاولها، والتاريخ الذي اكتشف فيه النار، وعرف صنع السلاح، وإقامة الأكواخ، فإن من أصعب الصعاب، أن يكتشف اليوم باحث، تطور نفسيات الإنسان الأول، وتطور مدركاته الفكرية.

وقد يمكن ترتيب الأطوار الكبرى التي اجتازها الإنسان القديم بشيءٍ من الفرق الدقيق، وبشيء من الاستقراء، ولكن التعرض لسلسلة المراحل التي تخللت هذه الأطوار الكبرى، ليس هيناً.

وإن كانت دراسة أحوال الجماعات الهمجية اليوم، تشير إلى أحوال الإنسان القديم، وتحل بعض الرموز، فإن ما لا شبهة فيه أن حياة أية جماعة همجية في هذا العصر الراهن، تختلف كثيراً عن تاريخ همجية الإنسان الأول ولا يمكن أن تعطي صوراً تقريبية لها.

فانتشار الجماعات الأولى على سطح الكرة الأرضية، يعد وثبة مجهولة لا يمكن أن يهتدي فيها فكر الباحث أو المفترض إلى نتيجة، يطمئن إليها العقل. وتحديد المجتمع الأول، للجماعة الأولى، لا يقوم إلا على ترجيحات ذهنية ضعيفة، يسهل نقضها.

فآثار الإنسان والحيوان المتحجرة، تكتشف في نواحٍ كثيرة متباعدة من الأرض، لا تصلها ببعضها وسائل النقل السريعة في هذا العصر إلا بصعوبة.

والذي دفع الجماعات البشرية الأولى إلى التفرق والتباعد، لا يمكن أن يتعدى الدوافع التي تنشأ عن الحاجة إلى الطعام، أو الشعور بعدم ملاءمة البيئة؛ لأن نظرية التكاثف الاجتماعي، لا يمكن التسليم بصحتها، بالنسبة للأطوار الأولى.

ولو أمكن التسليم بأن الجماعات المشتقة من الجماعة الأولى، اندفعت بعوامل بيئية، أو غذائية إلى الهجرة عن مواطنها الأولى على شاطئ نهر مثلاً، لما جاز أن تقطع طول هذا النهر، لتهجره إلى بيئات جافة، يقل استعدادها الطبيعي للزراعة، ولتكوين مجتمع حيواني، أو إلى بيئات بعيدة يستغرق الوصول إليها عمر الجماعة المهاجرة قطعاً.

ولا شك أن عوامل الانتشار والهجرة من أول بيئة عمّرها الإنسان ستبقى لغزاً مبهماً.

وعلى قدر الصعوبة في استنتاج النتائج المتعلقة بالحياة الاجتماعية للإنسان الأول، تتضاعف الصعوبة في الحكم على تطوراته الفكرية والنفسية.

ولا تزال الفكرة عن الخير والشر في بقايا الجماعات الهمجية، الآن غامضة كل الغموض، بالرغم من أن همجيتها، تعد حياة اجتماعية عريقة، إذا قيست فكرياً إلى ما يفرضه العقل لهمجية الإنسان في أطواره الأولى.

وقد تستغربون العلاقة بين الأطوار الاجتماعية الأولى، والبحث في الأخلاق، ونحن نراها في أوثق العلاقات، وألزمها لباحث يريد أن يحدد الفضائل، التي تقوم كل فضيلة منها مقام شريعة أدبية قامت بمجهود كبير في تهذيب النفوس، وتحديد ميولها، وكبح نزعاتها.
إن القوانين التي تسن اليوم، تشير إلى المجهود المضني الذي تبذله قيادة كل جماعة، لتنظيم حياتها، وعلاقاتها، وإقامة الحدود بين أفرادها، وتشير إلى التنازع المستمر بين رغبات الفرد، ورغبات الجماعة، أو بين الرغبات التي تمثل المصلحة الفردية، والرغبات المثلى للجماعة.

ومصادر التشريع اليوم، لا تلقى المقاومة التي تلقاها مصادر التشريع في الأطوار الهمجية الأولى. فقد كان كل فرد في جاهلية الحياة، حكومة تمثل نفسها، وتفرض رغباتها، وتمهد السبيل لمصالحها، بقانون قوتها الغاشمة!

فالعهد الذي برزت فيه أول فضيلة، أي أول شريعة أدبية، هو العهد الذي انبثق فيه فجر المدنية الفكرية للإنسان بلا شك، وهو العهد الذي تهيأت فيه الولادة المستمرة للفضائل، والشرائع الأدبية.

كيف نشأ الشعور بهذه الفضيلة؟ وكيف فرضت؟ وكيف تم الإيمان بها، أو الاصطلاح عليها؟ وكيف سادت أحكامها؟ ومن ممثلوها في الجماعة؟ وهل كانوا يمثلون سلطتها؟ وهل كانوا أقوياء، أم ضعفاء؟

تتداعى هذه الأسئلة في فكر الباحث باعتبار علاقتها بأهم خطوة في الأطوار الأولى لحياة الإنسان القديم.

ولا شبهة في أن الإنسان عرف النفع والأذى قبل أن تقوم في نفسه فكرته الأولى عن الخير والشر باعتبار مفهوميها العام، فاهتداؤه إلى فكرة الخير والشر، كان بعد عقيدته في النفع والأذى.

والنفع والأذى جاءا، أو جاء الشعور بهما بعد اللذة والألم، لأنهما صادران عن أحكام جسده وحياته في نطاقها الحيواني الضيق.

ولمّا كان بحثنا أشبه بمحاولة أدبية جريئة لتحليل الأخلاق، وعلاقتها الأصيلة بالحياة، فإنا سنتسامح كثيراً في التقيد بالقيود التي تستوجبها الدقة العلمية، في أبحاث تحمل شارة التقيد بأحكام العقل، والعلم المدقق.

* * *

نبدأ بتعريف الفضائل، والرجولة، والأخلاق، وهي الكلمات التي شملها عنوان هذا البحث مع إيماننا بأن تعريفنا لا يمكن أن يضمن تحديداً دقيقاً لها، إنما يكون أساساً تبنى عليه النظرة الخاصة، وتقوم عليه فروضها. ولا نستبعد أن يكون ما نقوله في هذه التعاريف، وفيما يتلوه من الفروض والنظرات متأثراً بما سبقنا إليه الباحثون. ولنا في هذا رأي نرى إيراده ضرورة. إن الأساسات المدرسية، والأدبية القديمة، في اللغة العربية، وفيما دخل عليها من اللغات الأخرى، تكون جزءاً من فكرة الأديب ومبدئه الأدبي، وجزءاً من نزعاته الفكرية.

وإذا كان الشاعر في عصرنا لا يخرج بلغته عن جملة الألفاظ التي استعملها الشعراء قبله، ولا عن قوانين الصياغة والرصف، ولا عن قوانين التخيل والتصور، فلأنه لا يستطيع أن يبتدع لنفسه لغة خاصة، ولا فكراً يصاغ على غير ما صيغت عليه أفكار الشعراء قبله، ولا قوانين صياغة غير قوانين لغته التي ورثها.

ومصادر الشعر النفسية والفكرية، وأسبابه العاطفية، والعقلية، ما تزال هي هي في شاعر اليوم وفي شاعر الأمس.

وإذا كانت أوضاع الحياة قد تغيرت، فإن خصائص النفس والفكر لم تتغير، تغيراً انتزع عواطفه الإنسانية وبدلها.

وإذا كانت العلوم قد تقدمت فليس تقدمها دليل أنه صار ذكاء الإنسان إلى غير ما كان عليه قبل ألف سنة.

إنما معناه أن الاكتشاف وتقدم وسائل التعليم، وتطور نفوذ الثروة والسلاح، والتقدم الآلي، وسعت مجالات الذكاء وضاعفتها.

وإن كان الإنسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه، فإن قلبه لا يزال ذلك القلب، وقريحته الشعرية ما تزال تلك القريحة، وما تزال أسباب الحب، ومشاكله، وابتعاثاته، وأوهامه في نفس شاعر اليوم، هي ذاتها في شاعر الأمس.

فالباحث في الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، لا يمكن أن يأتي في تعريفها بجديد يختلف كثيراً عما أتت به الملكات والأفهام قبل ألف سنة مثلاً وما يصيبه من تقدم الاكتشافات الفكرية، وتعدد سبل الحياة والعقل، يوسع مجالات العلائق فقط، ولكنه لا يخرج الاعتبارات الفكرية عن حدودها إلا قليلاً.

وجمود بعض الحقائق النفسية والفكرية معروفة، ما نجدنا بحاجة إلى التدليل عليه، وإنما تختلف العصور في الايمان بالحقائق والتوسع في فهم علاقاتها. فإذا قال مفكر اليوم إن الفضائل أوهام عقلية أو نفسية، غايتها إيجاد مثل عليا للجموع، تستمد منها روح العزاء والعزيمة والأمل، لم يكن معنى هذا إنكار صحة تعاريفها، أو صحة الأحكام التي أعطيت عنها.

فالشيء قد يكون صحيحاً في ذاته، وصحته لا تستدعي صحة الفكرة عن الاعتراف بإمكان تطبيقه، أو استحالة هذا الإمكان، ولا تستدعي الايمان به أو رفضه.

على أن تحديد بعض الحقائق وتعريفها قد يختلف في عصر عن عصر، بل في فكر عن فكر، ولكن حقائقها الأصيلة لا تختلف.

فإذا قال قائل عن الكذب ليس هو حكاية غير الواقع، لاختلاف التصورات والإدراكات في بعض النفوس عن بعضها، لم تكن مقالته إنكاراً لحقيقة الكذب، بل لتحديده وتعريفه.

وقد نكون مسبوقين إلى هذه التحديدات، أو مخالفين بها تحديدات يظن أنها أكثر دقة واستغراقاً لمعنى ما تحدده. فما نضطر أحداً إلى التسليم بما نقوله، أو قد يكون كل ما نقوله عن الفضائل والرذائل شيئاً قديماً فيما ندعي له الجدة أمامكم. وقد يكون شيئاً تجدون مشابهه في الجديد فما تنفى عنه هذه الشبهة.

إنما ندعي الاستقلال، وإنما نقول إن الأساسات المدرسية والفكرية القديمة، والأساسات الفكرية الجديدة، وشيوعها، جعلت بين الأفكار العامة روابط صلات، ما ينكر أثرها في إزالة الفوارق وتقريب الأفكار وتشابه السمات.

وحسبكم أن تقرأوا اليوم في الحجاز، أساليب من الشعر، وأساليب من الكتابة، لا يختلف بعضها عما تعرفون لخيرة الكتاب والشعراء في مصر، فمن يَعُدَّ هذا تقليداً أو سرقة؟ إنما هو أثر الاشتراك العام في مؤثرات فكرية متشابهة، وأثر انتشار الثقافة، وتهيؤ أسباب العلم لمستحدثات العقل والفكر والصناعة والفنون، وتوثق الصلات الفكرية والأدبية، وتوحد اللغة والدين، وتقارب الطباع والأمزجة وتأثير الاختلاط والامتزاج الاجتماعي والفكري.
وفي شعراء مصر من نجد على شعره سمات شاعر عربي قديم، وطابع صياغته في كُتَّابها من نجد في آثاره ما يعلن صلته الصريحة بأديب من كبار أدبائها، وفي كبار أدبائها من تطالعنا آثاره بأفكار أديب، أو نظرات عالم، أو مذاهب فيلسوف من الغرب، فماذا نحن قائلون؟؟

أغير أن مجال الفكر اليوم قد اتسع، وتحرر من القيود التي أقامتها العزلة القديمة بين الشعوب؟ وإن آثار حرية الفكر وشيوع مذاهب التفكير وأساليبها في أنحاء العالم، وتقدم المواصلات والصلات الاقتصادية والفكرية والسياسية قد خلقت طائفة من القرابات

الذهنية والأدبية بين الناس؟؟ وكانت سبباً في القضاء على كثير من أسباب التباين الفكري والأدبي بين الشعوب المتباينة!

وما نرى بعد ما قلناه، دليلاً على براءتنا من تهمة التقليد أو ترديد المألوف، أقوى من ضعف هذا البحث، واضطراب مذهبنا فيه، هذا الاضطراب الواضح.

والآن نبدأ:

الخلق الفاضل يعرفه الناس، فلا يزيدهم فهماً له أن تقيم الكلمات والتعاريف حدوده.

فهم يكذبون ويخونون، ويؤمنون بأن الصدق والأمانة نبل.

ويتبذلون، ويشعرون أن العفة سمو.

ويضعفون، ويكبرون القوة.

ويَظلِمُون، ويقدسون العدالة.

فالفضائل إذاً صفات وأعمال، تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحاً بفائدتها وضرورتها، أو بأنها خير.

والرذائل صفات وأعمال تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحاً بضررها أو بأنها شر.

فالنفع والأذى أساس الاعتبار في الفضائل والرذائل.

والأخلاق هي آثار الفضائل القائمة في النفوس، أو أثر مزاولتها، والرجولة في ميزان الاعتبار الأدبي، ليست هي الفارق الطبيعي بين جنسين ولكنها مجموعة من الصفات الرائعة في الرجل الرائع.

* * *

ومن حسن الظن أن الألفاظ في مجال البحث الأدبي، وتقرير التعاريف لا تحدد المفاهيم تحديداً هندسياً، ولكن تُقربها، لأن مدركات الذهن عادة تقوم بنصيب وافر في تكميل الصور، وحل رموزها، وتوسيع مدى مضامينها وإشاراتها.

وواضح أني لو أردت أن أضع تعاريف أدق وأكمل للفضيلة والرذيلة والرجولة والأخلاق، لوجب أن أسوق أمامي قطيعاً من أفكار الحكماء والعلماء والأدباء والفلاسفة، وأكون قد عرضت عليكم بضاعة غيري وبهذا تكون اللعبة أقل خطراً مما يراد، أو مما ينتظر.

والإيمان بالفضيلة قديم، كما أن الكفر بالرذيلة قديم، والحرب بينهما لا تزال قائمة، ما تهدأ لها ثائرة، وهي سجال بينهما، ميدانها النفس الإنسانية تارة، ومجال الحياة الظاهر تارة أخرى، وستبقى سجالاً هكذا. إلا إن أراد الله، فإذا انهزمت الرذيلة في مجال الحياة الظاهر، لم تنهزم في مجالها الباطن، فعرشها ما يزال موطد الأركان في النفوس.

فهل كانت الرذيلة ضربة لازبة على الحياة؟

أم أن في النفس الإنسانية ضعفاً؟ ما تكون الحياة كاملة معاني القوة إلا به. وإلا بأن يبقى قائماً يذكي نار الصراع فيها حتى تنتهي إلى غايتها المقدورة لها، أم أن الشر فطرة النفس الإنسانية، والخير عدوها اللدود فما ينفك يغزوها، وهي تدفعه؛ لأنه الدخيل الواغل على حياتها، فإن استكانت له فإنما تكون استكانة المجاهد المغلوب على أمره، لا استكانة الايمان بالحق، فإذا استعادت قوتها على الصيال صالت، وعادت سيرتها التي مما تتبدل ولا تزول.

ذلك ما لا يجد الفكر عليه جواباً.

لا خلاف في أن الإيمان بالفضيلة، والكفر بالرذيلة، غير سلوك سبيلهما، لكن الخلاف يجيء من التفرقة بين الإيمان والعمل به، والكفر والعمل به، والموقف من الدقة بحيث يخشى فيه الزلل على العقل البصير.

هذه مسألة لا يجيب عليها العقل وحده، بل يجب أن يُستنجد لها الضمير؛ فالإيمان بالفضيلة عند الفارابي -الملقب بأرسطو العرب- خير من سلوك سبيلها على غير إيمان.

وهو يريد بالإيمان هنا المعرفة. معرفة الفيلسوف المتعمق المنتهي إلى الطمأنينة والاعتقاد؛ فكأنه يقول: إذا عرفت أن الصدق خير من الكذب، وآمنت بهذا إيماناً قاطعاً مستمداً من معرفتك، كنت عندي خيراً من الصادق ما دام لا يماثلك في هذه المعرفة. واسمعه يقول: "لو وجد رجلان أحدهما واقف على مبادئ وتآليف أرسطو، ولكن لا يسلك سلوكاً منطبقاً على مبادئ هذا الفيلسوف، والآخر يسلك سلوكاً منطبقاً على ما جاء في هذه المؤلفات، ولكنه جاهل بها، فإن الأول أفضل من الثاني، لأن المعرفة أفضل من الفعل الفاضل."!

هكذا يقول هذا العقل الجبار، فهل هي كبوة من كبواته، أم هي حقيقة الحقائق في الإيمان بالفضيلة؟

إننا نرى وراء هذه الكلمة أمداء مترامية ما يحيط بها الفكر، فما نود أن نهيم فيها على وجوهنا، قبل أن نعود إلى الإيمان بالفضيلة، نحدده أو نقيسه، أو نزنه عساه يكون عدتنا لهذه الرحلة العسيرة.

ولا مراء في أن الإيمان الكامل الصحيح بالفضيلة، معرفة، وعمل، تقتضيه هذه المعرفة، وإرادة، وحرية..

هذا هو المظهر الكامل للإيمان بالفضيلة في اعتقادنا. فلنستعرض الآن ألواناً أخرى للإيمان بها.

إن الإيمان بالفضيلة دون العمل بمستلزماته، ضعف لا يتناول حقيقة الإيمان، بل يتناول قوة النفس وضعفها، وفتورها ونشاطها، فهو إيمان المعرفة، لا إيمان اليقظة.

وهناك لون من ألوان الإيمان بالفضيلة يعمل بمستلزماتها، ولكنه لا يعرفها المعرفة التي هي الإيمان، فهو اندفاع آلي لا اختيار فيه للنفس ولا إرادة، فنصيب النفس فيه، نصيب الآلة في حركة تؤديها، فهي تتحرك ولا تعي، وتفعل ولا تريد، كالصخرة تتدحرج فتصيب حياً فتقتله، وكالحيوان يطأ حياً فيودي بحياته، لا إرادة، ولا إدراك.

ولون آخر من الإيمان بالفضيلة تولده الضرورة، لا يكون لاختيار الإرادة فيه مجال، ولا لحريتها مساغ، كإيمان المرء بضرورة الثبات على الاستبسال دون نفسه أمام خطر داهم لا مناص له من مواجهته.

فالثبات هنا ليس إيماناً بالثبات، والعمل بمستلزماته ليس عملاً بمستلزمات إيمان يقوم على اقتناع الحرية المختارة، لكنه إيمان ضرورة بهذه المستلزمات والاستجابة لها.

فهذا إيمان، وعمل بمستلزماته وإرادة ظاهرة. لا ينقصه إلا الاختيار ليكون إيماناً كاملاً، ففيم يختلف عن إيمان رجل تحمله بالسيف على أن يؤمن بأن الصدق خير من الكذب، وعلى أن يكون صادقاً؛ فإذا عرف وصدق، فإنما يكون هذا إيمان ضرورة، وعملاً آلياً لا اختيار له فيه ولا حرية، وإنما يكون إيماناً تنتقض عليه نفسه كلما مارسه!

وإيمان بالفضيلة يولده الانقياد التقليدي، لا تنتقض فيه النفس على شيء، لأنها لا تحس شيئاً، بل تساير عليه الناس، تراهم يفعلونه فتفعله، لا مختارة ولا مكرهة، وإن كان ظاهره الاختيار والإرادة.

هذا إيمان بهيمي.

نحن نستطيع المقارنة الدقيقة بين هذه الألوان، ونعرف أيها له الغلبة، ونعرف أنها تتقاسم النفوس في القرن العشرين كما كانت تتقاسمها في المراحل الأولى من الحياة، لكنا نؤثر شيئاً غير المقارنة.

نؤثر أن نجعل السبيل إلى الشك والقياس مجهوداً.

وحسبنا أن نقيم المقياس، أو نصححه، أو نشير إليه ليقيس كل إيمانه بالفضيلة كما يقوم هذا الايمان في نفسه لا كما يقوم في أذهان الناس وعيونهم.

أنتم لا تعرفون عني إلا ما أريد لكم أن تعرفوه، وهذه سبيلكم أمامي.

الإنسان كما يشاء أن يفهمه الناس، غير الإنسان كما هو في نفسه.

هذه حقيقة نعرفها جميعاً.

وفي سرائر النفوس، سراديب تنطوي على ما فيها من عوامل الشر وآثاره ومن عوامل الخير وآثاره.

ولرب رجل يأتي الأمر، تظنه خيراً كله، وهو سبيله إلى الشر والأذى، وانتهاك الحرمات ومطيته إلى أغراض خائنة تسبح في دم الضحايا.. يرى إعجابك، وإعجاب الناس بما ظنوه خيراً فيتهلل، لأنه عرف مكانه من براعة الحيلة، ونفاذ الدهاء! فوارحمتاه للإنسان من أخيه الإنسان.

كلنا يؤمن بضرورة الارتقاء والنهوض، ويؤمن بوسائله وأسبابه الواضحة وكلنا يؤمن بالفضيلة والخير، ويكفر بالرذيلة والشر، فهل أفادنا هذا الايمان؟ هل أفدنا به ارتقاءً أو نهوضاً؟

إنما نراه عاملاً قوياً من عوامل ضعفنا، وإنما نراه أثقلها وطأة على مواطن الضمائر والهمم فينا، فلماذا؟ ألأنه الإيمان الذي يدعوه الفارابي عملاً فاضلاً، ولا يدعوه معرفة؟

أم لأنه إيمان الضرورة، الذي لا يخرج بالإنسان من حدود ذاته المغلوبة.

أم تراه الإيمان البهيمي، فيه الانقياد، وفيه العمل، وفيه الاختيار الظاهر وفيه الإرادة الزائفة، وليس فيه الإيمان؟؟

وبعد.. فهذا حد العظة الآن، في حديثي عن الفضيلة وعن الإيمان بها، أوجزت الكلام فيه، لأن الوعظ يمس النفوس ولا يرجها، ويثير فيها الرغبة، ولا يوقظ الإرادة، ولأني لا أريد لحديثي الليلة أن يكون موعظة، تلف النفوس فيما يشبه الغيم الرقيق، لا هو يجلوها ولا هو يتركها في غياهبها المطبقة.

إنما أريد الوضوح والتعرية، وإنما أريد أن نعرف جميعاً حقيقة الفضائل والرذائل، وقرابتها من العقل المبصر، وحقيقة الإيمان بها، ونصيب هذا الإيمان من الصحة والقوة، كما نعرف حقيقة كائن حتى نشأ وترعرع واكتمل وانساق بعوامل الحياة حوله. عسانا إن آمنا بالفضيلة بعد، أن نؤمن بشيء نعرف معناه، ونعرف مواضع الضعف والقوة فيه.

والآن بعد أن بسطت لكم هذا التمهيد أسأل:

هل كانت الفضيلة، أو كان الشعور بها، أساس البناء الخلقي في الحياة؟
ولا معدى هنا من توسيع مدى النظرة وإطلاقها، وإغفال أصوات المعارضة ولو قليلاً، هي هدنة نلتمسها، والباب بعدها على مصراعيه للرفض والإنكار.

* * *

إن مطالب الحياة للإنسان الأول لم تكن تعدو حاجته إلى الطعام والمأوى والقوانين الأدبية لا تنبت إلا حيث تتسع مطالب الحياة، وتتعدد صورها، وتنفرج مسافاتها، وهذا استقراء واضح لا غموض فيه.

في هذا الطور البدائي من الحياة تكون القوة العارية مبدأ الإنسان وقانونه، وتكون الرجولة رمز هذه القوة لأن للأنوثة فيه حدها الذي لا تتعداه، ويكون الرجل المرموق، من استطاع أن يكتسب طعامه، وأن يقيم مأواه الواقي.

فالرجولة في هذا الطور شيء يتعلق بقوة الجسد، لا بقوى النفس، ووشائج أطوارها الباطنة وتكون أيضاً الأصل في نشأة اعتبارات المحاسن، أو نشأة حلقاتها الأولى.

ونحن نسوق الكلام مساق التقرير. والواقع أنا نفترض فروضاً عقلية مجردة نلتمس أن تقيم لنا حدود الفهم والتصور والاقتناع، فالبحث في أصل نشأة الأنواع، أو في أصل نشأة الحياة الاجتماعية، لا يشبه في الغموض أصل نشأة الأخلاق والفضائل وتطورها وإن كان ارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية، شيئاً لا شك فيه.

ونزيد قولنا وضوحاً فنقول إننا لا نرى معنى لنشوء الفضائل في الطور الأول من حياة الإنسان القديم.

هنا إنسان لا يعرف إلاّ جسده وغرائزه وضروراته، مطلبه الأول: قوت، ووقاية.

والغرائز قائده الخفي، وبصيرته الملهمة وسلاحه، فهي مادة التكوين الباطن فيه، لا تصدر الحركات والاندفاعات والشهوات إلا عن أحكامها القاهرة.

الغذاء -الحياة!

هذا تنازع البقاء

الغذاء -الحياة!

هما المادة التي يتكون منها دستوره الأول.

وما زالت الغرائز في الإنسان والحيوان مظهر حياتهما الفطري، ومادة الاشتقاق وسبيل التحول.

والغذاء مطلب مشترك للإنسان والحيوان الضاري على السواء ولكن الحيوان الضاري أقدر على هذا المطلب، وأسعى له، وهنا موضع الاحتكاك والصراع.

فلا جرم أن يمتحن الإنسان في هذا الطور بعواد من الجهاد، ومفاجآته الطارئة، تتطلب الصبر والثبات والقوة العارمة، وتتطلب إلى هذا تبادل المعونة والنجدة، والتكاتف على دفع المخاطر.

وفي وسعنا الآن أن نقول: إن الإنسان إنما أراد بمسعاه الأول في حياته الأولى، تحقيق مطلب حياته الصارخ (الغذاء) وهو من صبره على ما يلقاه من عنت في هذه السبيل المملوءة بالمخاطر. عرف الصبر والثبات والشجاعة، وطائفة من هذه المحاسن المتصلة بضرورات عيشه.

نحن ندعوها محاسن أو فضائل، وهو يراها ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعاً أو مكرهاً، لأنه يريد أن يعيش.

وفي هذا الطور عرف الخوف، واعتاد الفرار، وأحس الجبن، وانعقال القوى.

نحن ندعو هذه معائب أو رذائل، وهو يراها سبيل حياته وبقائه. هي ضرورات قائمة في دمه يستجيب لها طائعاً أو مكرهاً، لأنه لا يريد أن يموت.

رَأى هذا الإنسان، أثر القوة في الحيوانات الضارية حوله وهو ضعيف، فأحس الحاجة إلى القوة وأحبها بقدر ما فيه من إرادة الحياة وحبها.

ورَأى أثر القوة في الحيوانات الضعيفة، إذا تجمعت وتعاونت على اتقاء المخاطر، فأحس الضرورة إلى التعاون.

وإذا كان بين الحيوانات الضعيفة، ما يزيدها التجمع ضعفاً، فالمرجح أن تجمعها في أطوار الحياة الأولى، كان يمثل إرادة البقاء. والأرجح أن هذه الحيوانات لم تكن موجودة بلا سلاح، يوم كان كل حي في الوجود مسلحاً بما يدفع به الغائلة عن حياته، فالذي لا تكفي قوته للدفاع تتحول فيه إرادة البقاء إلى كفاءة جريء أو مقدرة على التشكل والاختفاء.

وأثر الغرائز في الإنسان، أضعف من أثرها في الحيوان.

كان هذا هكذا، وما يزال هكذا.

فالفرّوج على ضعف بنيته وتركيبه، يندفع إلى الحياة نشيطاً آلفاً محيطه، مضطلعاً بمؤثراته العنيفة.

لكن الإنسان الصغير والطفل، يفتقر إلى المعونة الدائمة من والديه حتى يقوى.

إذاً ضعف الإنسان اقتضى شيئاً، اقتضى التجمع، التجمع التعاوني وكان تجمعه قبل ذلك طبيعياً محدوداً. وضرورات جهاده للغذاء، اقتضت التعاون على مثال أرقى، والتعاون اقتضى تجمعاً آخر معنوياً.. الاقتسام، الاشتراك، التعاطف.

وما يزال التعاطف في حياة البشر، ضرورة منشؤها الضعف، والشعور به في أفراد الجماعة، وفي أفراد الجنس.

هذا يشير إلى ذاك.

في هذا الطور بدأ الشعور بضرورة التكتل يقوى.

الحيوانات الضعيفة تتكتل وتتجمهر.

إذاً شعور الإنسان بالضعف اقتضى التكتل أمام المؤثرات المشتركة "أخطار الحيوانات والطبيعة" فاتسعت الدائرة قليلاً وأصبح الاجتماع ضرورة. وأصبحت له فرائض جماعية، نزل لأجلها عن شيء من أنانيته.

هذا واضح في حياتنا أيضاً.

أفراد الطبقة الممتازة في الجماعة، أميل إلى التباعد والعزلة، لشعورهم بالقوة والاكتفاء، وعندما تكون بواعث التكتل، مذيبة لفرائض العزلة، يتجمعون ويخرجون من حدودها، لشعورهم بالضعف وينزلون عن شيء من امتيازات تميزهم لفرائض الجماعة، ولفرائض الاشتراك والتعاون.

هذه ضرورات حياة.

ماذا يفعل الإنسان القديم في طور الكفاح الغشيم للحياة، لو أنه انفرد؟ وجافى جماعته؟

يموت جوعاً، أو خوفاً، أو يفترس، يندر أن ينجو.. لأن الحيوانات، حتى الحيوانات الضعيفة أقدر منه على الشم والجري والنظر، والإحساس الفطري بالمخاطر، وتجنبها.

هي ذات غرائز قوية وهو ذو غرائز ضعيفة.

السبع، لا يخاف النمر، ولا يخاف الذئب لأنه يغلبهما، ويفترس ما دونه فانتفاء الخوف عنه جعله ينفرد. قوته وصولته تتكفلان بعيشه وحمايته.

الإنسان يخاف السبع والنمر والذئب، ويخاف الوعول والكلاب. هي ذات براثن وحوافر وأظلاف وقرون ونيوب.

وهو ذو حجر وعصا وأنشوطة، وذو حيلة وصبر ومهارة. فما يخشاه السبع إذا انفرد، ولكنه يخشاه إذا تجمع.

فالتجمع تكفل بحماية الإنسان، ووسع دائرة تعاونه وتعاطفه.

كانت انفعالاته جسدية محضة، فأصبحت انفعالات جسدية نفسية استمد إدراكها من ضرورة العناية بابنه وبرفيقته... (بأم هذا الابن) ومن مظهر التعاون بينه وبين رفيقه، وشريكه في الصراع اليومي والاشتراك لون من ألوان القرابة المؤثرة، ما يزال هكذا.

ارتقت غرائز الإنسان وتقدمت، تطورت قليلاً، فولدت الشعور بالتعاطف كضرورة.

كان التعاطف الدعوة الأولى إلى نشوء عواطف محدودة في الإنسان ضاقت معها حدود أنانيته قليلاً.. وأخذت تضيق باتساع عوامل الضرورات الجديدة، المتحولة عن الضرورات الأولى.

كان يحب نفسه وأسرته، فصار يحب الجماعة أيضاً. كان يحب مأواه، فصار يحب مأوى هذه الجماعة.. (المأوى العام الموطن)، لأنه في اعتباره، موضع انتفاء الخوف، واتقاء عوادي الطبيعة، وموضع ألفة ألوان من الحياة، والجماعة والقرابة، وتبادل العلم بالأشياء وفهمها، والتحدث عنها، وموطن ذكريات النشأة الأولى، وخطرات النفس في أول شعرها بما حولها، وبما فوقها من مجهولات تخيف وتثير وموطن تكتل الجماعة وشعور الأنس بها.

وحب الوطن فضيلة -لا شك-.

هو فضيلة المتوحش والهمجي والاجتماعي والمتمدن، وفضيلة قد تتسع وتمتد حتى تكون أساساً لحب الموطن العام للبشرية كما كان حب المأوى الخاص أساساً لحب الموطن الجماعي، فالموطن القومي.

فهل كان أساسها إلا الضرورة؟ وهل كان الوطن عند الإنسان القديم إلا هذه المعاني؟ وإلا قرابة مدلولاتها من حياته.

فالغرائز، وضرورات الحياة، والشعور بالضعف، هي المعين الذي استمدت منه تطورات الإنسان في تكتله، وتعاونه، وتعاطفه، ومزاياه الأولى خصائصها ومقوماتها، كما كانت القوة في الرجل القادر، رمز الشعور بالمحاسن أو مثار الإعجاب والمحاكاة.

وفي وسعنا الآن أن نستخلص مما تقدم أن الرجولة، كمظهر للقوة ومقدراتها كانت أصل الشعور بمحاسن القوة، والأصل الذي اشتقت منه القيادة المحدودة والزعامة المطلقة، بعد.

* * *

هذه صور متلاحقة سريعة، أعرضها في دقائق، فتدركونها، وترتبونها وتحسون الترابط الوثيق بينها. لكن كل صورة منها كانت في حياة الإنسان القديم أجزاء، ما يتألف منها جزء على جزء إلا ببطء كبير.

لم تكن الحياة سخية كما هي الآن، ولا كما كانت قبل ألفي سنة. ولم تكن الحوادث والتطورات تسير بالسهولة التي تسير بها الآن وقبل ألفي سنة. كان كل شيء في الحياة يبدو مخيفاً، مغلقاً، جامداً، مبهماً بطيئاً، لا يزحف، ولكن يختلج، ويتقدم بصعوبة.

وكان الإنسان يهيم في ظلمة مطبقة من نفسه، ومن الأخطار والألغاز المتوثبة حوله، وتحته، وفوقه.

الشمس، العاصفة، الليل، القمر، النجوم، المرض، الموت، الأحلام، الصاعقة، البرق، كلها غامض وكلها مرعب نحن نفهمها ونستمد من بعضها أسباب سرورنا بالحياة، وسرورنا بأنفسنا، ولكن الإنسان القديم كان يخافها ويجهلها.

كانت كلها ألغازاً مجهولة معقدة، ما يرتفع عنها الستار، ولكن يزحزحه الإنسان، وذخيرته ما يلقى في روعه عنها. وهو يتوجس الموت في كل خطوة مرتجفة يخطوها، وفي كل خطرة من خطرات نفسه القلقة وبصيرته الكليلة.

الأشد ما عانى هذا الإنسان القديم، كم جاهد، واحتمل المشقّات والأهوال وخاف، ولقي الموت عارياً، في مراحل نشأته الأولى وحياته، حتى مهد لنا سبيل الحياة الآمنة.. ولو أنه كان مضطراً أن يفعل.

ها نحن نجاهد بعد انبثاق فجر المدنية آلاف السنين للتقدم، وها نحن نلقى الطبيعة، وقد قلت في نفوسنا هيبة مخاطرها المرعبة، وانزاحت ظلماتها المتراكبة، وارتقت وسائل الدفاع ووضحت مسالك العقل، وندرت المخاوف.. وما زلنا نخشى الظلمة، وما زالت فرائضنا ترتعد من حركة مجهولة فيها، وما زلنا نخشى المغاور والثقوب والمفاجآت المنبعثة منها.

فالدنيا كلها كانت مغارة مظلمة، أمام الإنسان القديم تترصد له فيها كلمات خطا خطوة، مخاوف الموت حاسرة أو مستخفية، وطافرة أو زاحفة... رائحة الموت في كل شيء!..

وكان البطء الممتد المرعب، والتجارب القاسية القتالة، مفتاح هذه المستحيلات والمجهولات ومفتاحها الفرد.

والحساب هنا ليس حساب سنين، لكنه حساب أجيال، في وسعنا أن نفترضها، متى قارنا طفل القرن العشرين، بجده الإنسان القديم البعيد.

الطفل الذي تقوم على تربيته الأولى أمة بأسرها، بغرائبها، ومعلوماتها، وحضارتها، أمة يؤلفها المنزل، والزقاق، والحارة، والمدينة والمدرسة، وذخائر من الكتب والقواعد والدين واللغة الكاملة والحب والعواطف، والعادات والتقاليد، والغرائز المهذبة، وقوانين الوراثة ووسائل الحضارة، والأمن والرخاء.

هذا الطفل الذي ما يبلغ مرحلة رشده الأولى حتى تتصبب الأمة عرقاً، وتتهافت إعياء، أين هو من الإنسان القديم الأعزل المندفع في بيئة مظلمة، تحتل الحيوانات الضارية نقطة الحياة منها؟ والذي مأواه كهف ضيق مظلم، أو رأس شجرة وفروعها، تتردد حولهما المخاطر عارية، ويتردد حولهما الجوع والرعب، والريح التي تشي برائحته؟

* * *

بهذا المقياس نقيس بطء التطور في هذه المراحل المتساوقة، وإن كانت طبيعة العرض للصور المتلاحقة أمامكم، تختزل هذه الأمداء المترامية في كلمات..

والآن إلى القوة.

فرصة الحياة شائعة يأخذ كل فرد في الجماعة بنصيبه منها.

هذا يطارد الغزال، وهذا يكمن له.

هذا يصيد أكثر لأنه أكثر قوة وحيلة.

وهذا لا يصيد لأنه أقل قوة وحيلة.

(لا يصيد كثيراً إلا الأقوى).

هذان طفلان يموتان في مطلع حياتهما، بسبب ظاهر أو خفي.

وهذا طفل يعيش.

هو قوي، وهما ضعيفان.

(القوي يعيش، والضعيف يموت).

هذا قوي يسقط من شجرة فيموت.

وهذا قوي تطبق عليه صخرة فيموت.

(لم يموتا لأنهما ضعيفان: دهشة، انقباض، إذعان، صدفة، حظ).

هذا قوي يصارع الرجال فيغلبهم (قوي).

هذا قوي يصارع الأسود ويصطادها (أقوى).

هذه مقارنة ثم: (خوف، حسد، تسليم، بطولة، زعامة).

هكذا آمن الإنسان بالقوة، وبمظاهر اقتدارها.

وكذا آمن بالحظ.. والزعامة.. والبطولة.

وهكذا قارن واستنتج.

ودّع الإنسان عهده القديم، وقابل عهداً جديداً.

تراث هذا العهد المتحول: غرائز تلطفت حدتها.

عواطف محدودة بين أفراد الأسرة.

تعاطف تعاوني بين أفراد الجماعة.

إيمان مطلق بقوة الجسد (الرجولة، البطولة، الزعامة).

محاسن، ومعائب، تتعلق بقدرة الجسد، وكفاءته الظاهرة.

خرافات فردية وجماعية عن الطور القديم.

* * *

يمتاز الطور الجديد بأنه أكثر ضماناً لطمأنينة الفرد والجماعة من سابقه، وبأنه أوفر غذاء.. لأنه عهد أكثر رخاء، ولأنه عهد ذو تراث.

هذه فرصة ينتهزها الإنسان للابتعاد عن حياة القلق والعراك، وللخروج من حدودها قليلاً.

هي فرصة الراحة بعد العناء، فرصة التعقل الهادئ، والالتفات والتأمل.

تدلنا أطوار الجماعات الهمجية الآن على أن سعة الشعور والإدراك، وامتداد التخيل، وتصور أمثلة أرقى للمدركات، والإحساس النفسي بالنزوع إليها، والصبوة إلى تحقيقها لا يمكن أن يتأتى شيء منه للإنسان في أطواره الأولى، إلا كلما قطع مرحلة في تقدمه الاجتماعي والفكري.

فالرجل البدائي، أو الهمجي مثلاً، لا يكون إلا مثال القصد والاكتفاء والوضوح، وانتفاء التعقد، في ظواهره وبواطنه.

ثم هو بقدر ابتعاده عن بيئته الطبيعية الأولى، وقوانينها، ودخوله في بيئات أكثر تعقداً، يأخذ في التحلل من تأثير إيمانه القديم بقوانين حياته الآبدة، ومطالبها المحدودة.

فنشوء المحاسن الاختيارية إذاً لا يمكن أن يكون إلا من صنع التقدم الفكري والاجتماعي، لازدحامه بالصور والأوضاع التي لا يمكن أن يعالج حل عقدها، بمنطق القوة وحده، والطور الجديد الذي نتكلم عنه الآن، وهو بيئة أكثر تعقداً وإن كانت أقل خطراً.

والتقدم الفكري والاجتماعي، تطور يتناول المدركات الحسية والمعنوية بالتحوير والتعديل والزيادة والنقص، يعطي قليلاً ويأخذ أقل.

وهو في أطواره الأولى يزيد خصائص الشعور بالقرابة الجماعية ويؤكدها. فلا غرابة إذاً، في أن يكون طور الانتقال البطيء من حياة التنازع الغشيم، سبباً في حمل الإنسان على الالتفات إلى الماضي، الذي ما زالت تربطه به روابط وثيقة.

هذا رجل شامخ القوة، حطّمه الجهاد، أو حطمته السن بكلالها الطبيعي، لا بد أن تعتبره الجماعة القوية شيئاً من تراث أمسها الغابر، تقبل عليه بالرعاية والإيناس وتوليه إكبارها، وتعود إلى رأيه المستمد من ذخيرة تجاربه الواسعة، وتأملاته الهادئة فيكون بهذا قائد حركتها، أو معنى بارز الأثر في قيادة هذه الحركة.

وهذه امرأة فقدت ابنها القوي الذي كانت أياديه على الجماعة ما تنقطع فقعد بها الحزن عليه، وافتقاد الإعجاب به، والراحة إلى قربه، تكون مصيبتها رمزاً لمصائب الجماعة، وبعثاً لأحزان الأمهات والآباء فيها فنجد النفوس في مواساتها، وتخفيف لوعتها وإعانتها على قطع الرحلة الباقية لها -واجباً- يستنبط الشعور بضرورته، شعور الرقة والعطف، والارتياح إلى الإحسان.

وهكذا تنشأ العواطف أجزاء ثم تتواءم، ويزداد أثر الشعور بها، والحاجة إلى المبالغة فيها والاستزادة منها، وضوحاً في النفس بازدياد بواعثها وأسبابها، حتى تكون أخيراً النداء الملح إلى بروز الفضائل، وتكون اعتباراتها الأولى.

وكما كانت اللغة في أصل نشأتها أصواتاً ومقاطع، فقد كانت السلسلة الطويلة من ميراثنا الإنساني في الفضائل حلقات أبجدية، مشتقة من مؤثرات الحياة الأولى، وضروراتها الظاهرة والباطنة.
وقد قلنا إن القوة في الطور القديم كانت أصل نشأة الشعور بمحاسن الرجولة، والميل إلى تقليدها، واتباعها. أو كانت تمهيداً طبيعياً لنشأة المحاسن الاصطلاحية، وتمهيداً للإيمان بها، وتحتيمه فيما بعد.

ومن ينكر هذا على الطور الذي كانت فيه القوة الجسدية، مصدر الاعتبارات كلها؟

ألسنا في القرن العشرين وفي دولة الفكر، نرى أن القوّة مصدر السلطان؟ وأن سلطانها عطل قوة الروح، وإعتاق نفوذها، وقام يرسم للأخلاق حدودها الجديدة، كما يفعل القائد لجنوده؟
ألسنا نرى عصف القوة بالمبادئ الخلقية والإنسانية، وعصفها بالضعف والقلة وخنقها لشعور الإنسان بحرية اختياره حتى في نفسه؟
إذاً فالطور الغشيم، ونقصد به الطور البدائي انتهى بالجماعة إلى اعتبارات روحية، زاحمت فيها قوة الجسد، قوّة أخرى معنوية، تحولت عن قوة الجسد.

قوّة أخرى معنوية، كان يمثلها رجال أقوياء (أجساد قوية) مات بعضها في إبان نشاطه مخلفاً ذكريات حياته النابضة في الأسرة والجماعة، وبقي بعضها ماثلاً، وقد أعياه الكفاح القديم وأضناه هذا من تراث الماضي.

ماضي الغلاب والعوادي والظُّلمة.

هو قوّة ولكنها ذابلة حائلة، فهي بالضعف أشبه. بل هي ضعف ولكنه ضعف محترم محبوب.

هي شيخوخة الأم وشيخوخة الأب. بل هي الشيخوخة في غير الأم والأب. وهي الزمانة والكلال في الأخ والرفيق، وفي غير الأخ والرفيق.

وهي طفولة طفل خلفه فرد من الأسرة، أو فرد قريب من الجماعة أو خلفه.. رجل.

فهذا ضعف قوي يفرض نفسه على القوة فرْضاً ويحتم عليها السنن والواجبات له، ويلقي عليها الأعباء تؤودها، ولكن تسرها.

وهو ضعف ينازل القوّة وجهاً لوجه، ولكن في غير ميدان الجسد الذي خلفته وراءها يشرق بدم الضحايا من الحيوان والإنسان، ضعف نبيل كانت الدعوة الأولى إليه صرخة الطفل وبسمته وعواطف النبوة والأبوة والأمومة والقرابة والاشتراك.

وهو في يوم الجماعة الجديد، مولود الجماعة كلها في أول استهلاله وهو المادة الأولى في شريعتها الأدبية. ويشير انبثاق فجر جديد، شعرت بعده الجماعة بانطلاق حدودها، فبدأ القانون الأدبي يتألف، تؤلفه العواطف، ويؤلفه الشعور أو تؤلفه ضرورات أدبية.

فهذا طور من الحياة جديد، يهزم أو يخلف طوراً من الحياة قديماً وقد تمت له الغلبة أو كادت.

لكن الغلبة هنا ليس معناها استغراق الغالب للمغلوب وليس معناها أن الناس كلهم، فقدوا غرائزهم بل هذّبوها، وحوّلوها، واتجهوا بها اتجاهاً يوائم مقتضيات الطور الجديد ومطالبه.

والناس منذ كانوا لا يتشابهون ضعفاً وقوّة وهم في أطوار الانتقالات لا يتساوون إدراكاً وكفاءة للاضطلاع بأعبائها وألفة فروضها الجديدة، ولا يتساوون كفراً وإيماناً بواجباتها ومزاياها.

وإنك لترى خمسين طيراً من جنس، لا يختلف فيها طير عن طير في طريقة إحساسه بما حوله واستجابته لمطالب غريزته وفي ألفته ونفوره.

ولكنك تكون أمام أفراد من أسرة معينة، في بيئة خاصة، في جماعة تؤلف بينها وشائج القرابات الممتدة، فتكون أمام طائفة من الاختلافات لا يوائم فيها طور طوراً، ولا تطابق فيها صفة صفة، ولا يماثل فيها مزاج مزاجاً.

وهكذا تكون كلما صعدت، رأيت التمايز والاختلاف بين الناس متسعاً. والجماعات الهمجية أقرب إلى التشابه ولكنه تناقض واضح، وإن كانا في الظاهر، قريباً من قريب في اعتبار موازين التقدم التمدني أو النظرة العابرة.

فلا يدع أن يخرج على هذا القانون الأدبي الجديد أفراد يقل أثر الشعور بالشريعة الأدبية في نفوسهم، إما لأنها تمثل السلطة للأفراد السائدين، فهذه شارة التمرد عليهم، وإما لأن فوارق الإدراك من شأنها أن تفعل هذا. فلا جرم أن يكونوا عاجزين عن مسايرة التطور الجديد، لأن أثر الأنانية الغريزية فيهم أوضح، وأثر (الغيرية) أضعف، واختلاف العوامل النفسية ما يزال هكذا، حتى عندما يكون اتجاه الجماعة متحداً.
من هنا تنشأ الرذيلة، أو تنشأ الفكرة الأولى عنها، وتكون في شكلها البدائي (عيباً، أو نقصاً) سببه الإضراب عن مسايرة الجماعة.

* * *

كانت القوّة في الرجل مصدر الإعجاب والتقديس. والقوة ما تعرف الهوادة في تأمين سبيل حياتها ومطالبها.

وكان الناس يتفاوتون في نصيبهم من هذه القوة، فامتاز في الجماعة أفراد، تفاوتوا أيضاً في درجات تمايزهم.

)هذا أكثر استفزازاً لشعور الجماعة، وهذا أقل.(

وكان الطور طور ألفة واتحاد، وتعاون، وهذه ضرورات فلا رذيلة ولا فضيلة وإنما مقابح ومحاسن تتعلق بالجسد وكفاءته الظاهرة قوة وضعفاً.

هذا يشير إلى أن الفطرة البشرية ليست فطرة شر، ولا هي فطرة خير في مبدأ ظهورها على مسرح الكفاح للحياة. فإذا كانت سبلها إلى البقاء تقتضي الخير فعلته مطمئنة، وإذا كانت تقتضي الشر فعلته غير مكترثة.
فالخير والشر قبل أن يصبحا من مفاهيم الإدراك الأدبي، في أطوار الانتقالات الاجتماعية البطيئة، لم يكونا خيراً وشراً، فيما يتصل بأعمال الإنسان، بل كانت هناك الحياة وكان الجسد وكانت الضرورة.

هذا إنسان يريد أن يعيش، يكمن لحيوان ويصرعه. أفي هذا شر؟ ماذا كان في وسعه أن يفعل الحيوان نفسه، لو ظفر به لجعل منه مادة غذائية. هذه حرب للحياة، وليست حرباً لشر مقصود، أو مفهوم.

الطبيعة ذاتها..! ألا تحمل بدورها على العاري والضعيف والضال؟ ألا تنشح بالمطر؟ ألا ترسل الصاعقة؟ ألا تبعث الزلازل؟ والتغيرات المفاجئة والكوارث؟ ألا تدحرج صخرة فتقتل بها رجلاً قوياً غافلاً؟! من يقول إن هذا شر؟ إنما هو نظامها، وطريق مسراها إلى غايتها المرسومة لها من خالقها القوي الحكيم، فهو طريق الإنسان والحيوان إلى غايتهما أيضاً.

في هذا الطور كان التعاون ضرورة، وللتعاون الجماعي فرائض وسعت حدود النفس كثيراً أو قليلاً. وكان ضرورياً أن يتقبل فيه الإنسان فرائض الجماعة، عندما كانت حاجته إلى الحماية والتعاون ضرورة وخوفه من الطبيعة قاسياً.

فإذا تغير هذا الوضع قليلاً، وقلت المخاوف من الانفراد، وتقدمت وسائل العيش، وتعددت -مال إلى إظهار الشعور بحريته، والتمتع بمزايا مقدرته وقصرها على نفسه وأسرته، وتولد عنده الميل إلى المخالفة والاعتزال.

فلو اعتبر هذا في عرف الجماعة الغالبة خروجاً معنوياً على أساليبها المتبعة لم يكن الخروج الذي يقتضي الحرب، وشن الغارة، لأن الشرائع الأدبية في بدء نشوئها والشعور بمزاياها، تكون مطلباً كمالياً، أو فرض كفاية يتلمس الطريق إلى النفوس في هدوء فمشاعر الجماعة هي التي كونته فحاجته إلى القوة تفرضه وتحتمه.

لذلك كان سلاح القوانين الاجتماعية، والشرائع الأدبية، القوة لا الإقناع في الأطوار التي قام بها ما يشبه الحكم، أو القيادة (أي في الأطوار الأكثر تقدماً).

عندما يكون الناس مختارين لا يفعلون شيئاً إلا من تجعلهم مواهبهم ومشاعرهم الخاصة في طور أرقى من طور الجماعة.. هذا في القرن العشرين أوضح مما كان في حياة الإنسان الأولى أو في حياة الهمج.

اختلاف الطبقات نظام سيىء، يجعل الأنانية، أنانية جماعية، لا أنانية فرد. الفقير يشعر شعوراً متطرفاً بشكوى فقد مثله أو دونه، الغني لا يشعر كشعوره، إلا نحو غني من درجته، أو أقل قليلاً.

الفقير يعرف حرارة الجوع.

الغني يعرف حرارة الاضطرار لبيع المنزل، المسكين عنده من اضطر لبيعه فهو في دنيا غير دنيا الفقير.

ما تزال عواطف الرحمة، والشفقة، والنخوة، ومشاركات الشعور، في الجماعات الدنيا، أكثر منها في الجماعة العليا.. (لعل هذا قانون الشعور بالضعف، أو قانون التشابه في مؤثرات مشتركة) أو لعله (قانون السذاجة).

النعمة لا تبطر... ولكنها قوة تجعل الإنسان انفرادياً، فهي تسد مسام الشعور والإحساس، وتقفل نوافذ النفس.

بل إنها تبطر، ألم يقل الكتاب العزيز: ((كَلاًّ إِنَّ الإنسان ليطغى* أن رءاه استغنى)).

ليس الأغنياء كلهم ولا الفقراء كلهم هكذا.

هناك غني يشعر، ويستجيب دواعي نفسه، ولكن في الألف.

وهناك فقير لا يشعر، ولا يستجيب، ولكن في الألف.

* * *

لم يكن في حياة الإنسان القديم فقر، ولا غناء، ولم تكن هناك طبقات وفوارق، كانت الثروة جسداً قوياً، والسلاح قوة. (هذا أقل قوة، هذا قوي، هذا أقوى) وكانت المشاعر واحدة، والغاية واحدة والسبيل واحدة.

لذلك يكون الشذوذ على المطلب الجماعي الأدبي، ضعيفاً، ومتقطعاً وخافتاً.

فإذا كان العهد الجديد أكثر رخاء، وأكثر أمناً، وهو هكذا قطعاً، كان الاستغناء المفروض عن هذه القلة الشاذة، وعما تؤديه ممكناً جداً.

فمتى ساهم الفرد في رد الغارة عن جماعته، وفي أداء نصيبه من الجهد إزاء الأخطار التي تهدد طمأنينتها، ومتى عال نفسه وأسرته وشارك الجماعة في حمالاتها، وتبعاتها المادية، كان

قيامه بالفرائض في شريعتها الجديدة شيئاً اختيارياً، له قيمته، وله جزاؤه في العرف والاعتبار الأدبي فإذا شح بما يقتضيه العرف على الضعفاء والشيوخ، كان جافياً على نفسه، وعلى درجة اعتباره المعنوي بين الجماعة.

هكذا تشعر القوة الممثلة للشريعة الجديدة، والقوة الخارجة عليها في الابتداء...

ولكن الحوادث تلعب دورها بينهما، بعد...

تبدأ الخصومة بين الضعف الذي كان مصدر قوة التشريع، وسبب وضعه والذي نازل القوة فهزمها، وحبب إليها الهزيمة، فأصبح مصدر السلطة الروحية في قانونها الجديد وبين القوة التي رجحت اعتزال الجماعة، والخروج على قانونها.

يبدأ التنكر والعراك بينهما، هادئين ثم مخيفين.

وسواء أشرع الضعف (المتسلط) قانونية هذا العراك الشعري أو شرعه الأقوياء الفضلاء باسمه فإنه المصدر. هكذا انشطر تقديس القوة -التي مظهرها كفاية الجسد- إلى شطرين. كما انشطرت القوة إلى شطرين، تحول أحدهما إلى قوة ذات سجايا نافعة لجماعة الضعفاء فاتسع أمامه مجال التطور، والظهور والتأثير، لأنه قوة نبيلة معقولة، والآخر قوة لا تخرج من حدود ذاتها الضيقة.

الأول قوة متعدية أو منصرفة.

والثاني قوة لازمة، أو جامدة.

ما زالت الفضائل المتعدية في القرن العشرين، وفي جاهلية الجماعات أكثر أعواناً، وأكبر نصيباً من تقدير الناس وإقبالهم.

والعراك دائماً يخلق ميادين النشاط والتزيد ويوسعها، وهذا عراك السجايا بين قوتين.. عراك جديد، لأنه نمط جديد.

فالفضائل الناشئة في هذا التطور تكون مظهراً للاختيار والقصد أولاً، أو مظهراً لضرورات أدبية، ثم تستحيل ممارستها، والحرص على الإنصاف بها إلى نوع من اللذة الخفية، وتداعي الشعور بحلاوة ما تلقاه من إعجاب وتشجيع ومناصرة.

والعزلة تتخذ مظهر الحرد والعناد والإصرار لما تلقاه من مقاومة وزراية واستغناء عنها فتمعن فيما يزيد حنق الجماعة ويسيء إليها.. هذا مفترق الطريق للقوّتين.

وليس في تغلب قوة على قوة تماثلها في ميادين التطاحن، شر ولا نذالة كلتاهما تعمل للبقاء والسيادة، وكلتاهما تدافع عن حق تراه حقاً، فالنزاع بينهما مشروع، كما كان النزاع بين الإنسان والحيوان مشروعاً.

لكن قوة الخارجين على الشريعة الأدبية للجماعة هنا، لا تنازل قوة تماثلها، بل تنازل ضعفاً..
تحميه قوة.. فالانتصار عليه نذالة ولؤم.
هكذا يتولّد الشعور بالرذيلة، وفهمها واضحين.

بدأت الفضيلة قوية مؤزّرة، وبدأت الرذيلة ضعيفة متكوّرة.

ما تزال صرخة الفضيلة أقوى، في نفوس الجماعة.

ألمانيا تقول الحق، العدالة، المنطق.

إنجلترا تقول الديمقراطية، نصرة الضعيف، حماية المبادئ الفاضلة.

لا يوجد من يقول الاغتصاب، العدوان، سحق الضعيف، الطمع لأن الرذيلة لا تنتصر إلا متى كان صوتها قوياً، وصوتها لا يكون قوياً إلا إذا نفخت في بوق الفضيلة.
هذا في حياة الأمم مثله في حياة الأفراد، وهو في القرن العشرين مثله في القرن العاشر، ولكنه لم يكن هكذا في حياة الإنسان القديم.

كانت الفضيلة حينئذٍ حقاً، أو شبيهة بالحق، وكانت صفات لازمة أو محبوبة ترتاح إلى ممارستها النفوس ولا تستغلها.

القوي الذي يعطف على الشيوخ، والنساء، والأطفال: أقوى، أحسن، أفضل (حب).

القوي الذي لا يعطف على هؤلاء رديء، قاسٍ (بغض).

القوي الذي لا يحب الجماعة، ويعتزلها، يحب نفسه، أناني (ازدراء).

اتسع دستور القوة قليلاً واتسع إدراك الجماعة قليلاً.

كان الإنسان يرى ويدرك بغرائزه، وضرورات حياته، فأصبح يدرك، بقلبه، بوجدانه بشيء من الشريعة الأدبية.
كان يرى قوة، وقوة، فيقيس بينهما ويفاضل (قوي، أقوى).

صار يرى قوة، وقوة وسجيّة، فيقيس بينهما، ويعلل، ويستنتج (حسن أحسن).

كان يكره الأقوى ويخافه، ويحسده، ويطيعه.

الآن يعظمه، ويحبه، ويتّبعه.

صار مختاراً بعد أن كان مضطراً.

هذه خطوات الجماعة.

خطوات الفرد الخاصة غير هذه، تختلف كثيراً عندما ينفرد.

يرى الأنانية حقاً إذا كان قوياً.. ويراها باطلاً إذا كان ضعيفاً.

ما تزال الجماعة أقل دقة، وأسرع إيماناً.. وأعمق استجابة، من الفرد.

* * *

تضيق حرية الفرد كلما تقدمت أطوار الجماعة اجتماعياً، وكلما تكاثرت الروابط الاجتماعية واتسعت الحدود لحرية الجماعة فيها.
لا يعود من مصلحة الجماعة، إطلاق الحرية للفرد، أو للأقليات، فتنشأ شرائع وضعية، يضعها الأقوياء، المسيطرون على الجماعة، تكون خلاصة لشرائعه الأدبية، التي تصبح بالتدريج معتقداً عاماً.
فالشريعة التي تكون فرائضها الأدبية، فرائض كفاية، أو فرائض اختيارية، تنقلب قانوناً لا معدى عن طاعته.

والمحاسن التي كان مصدرها الجسد والقوة، وجاء طور أصبحت فيه أساساً لشريعة أدبية يجيء عليها طور آخر، هو طور التلقي والمزاولة، لا بد أن تكتسب فيه صفة التقاليد الواجبة، ولا بد فيه من ممارستها، ومحاولة تحويلها إلى خصائص نفسية، وفكرية ثابتة (أخلاق ومعتقدات).

ولسنا نعني طبعاً في كل ما تقدم أن الإنسان في هذه الأطوار كان يضع الأسماء لمسمياتها على وفاق ما تشعر به إزاء إدراك معانيها، وشيوع الإحساس التام بها في نفوسنا، إنما نعني أن إعجابه بالقوة وبمحاسنها، وشعوره الأدبي بمعنويات الحياة والنفس، كان يقوم مقام هذه التسميات، ويرمز إلى مسمياتها أو إلى ما يشبهها.

ومن المؤكد أن تطور اللغة في الحياة الأولى لهذا الإنسان، كان أبطأ كثيراً من تطوراته الاجتماعية والفكرية، فالشعور والإدراك يسبقان عادة التسميات وألفاظها، تشعر أولاً أو ترى، أو تعرف، أو تسمى!

ومن المحزن حقاً انقراض الأصول الأولى للغات، فقد كان وجودها حرياً بأن يوسع آفاق حياتنا الفكرية، وبأن يحدثنا ألذ الحديث وأشهاه عن تواريخ تلك التطورات القديمة التي رافقت كفاح الإنسان في أطوار انتقالاته الاجتماعية والنفسية، والفكرية.

كيف حارب الإنسان؟ كيف كانت همومه؟ كيف فهم السجايا التي صارت أساس شرائعه الأدبية؟ وكيف سماها؟ كيف نشأت الآداب؟ كيف نشأ الشعر؟ كيف كانت أساليبه وموضوعاته؟ كيف غنى الإنسان؟ كيف تحمس وفاخر؟ كيف تعبد؟ كيف أحَب؟

هذه الحلقات المفقودة، جزء من تقدم شرائعه الأدبية، بل هي أهم أجزاء هذا التقدم ودلائله وهي سبيل الفهم اليقيني أو ما يقاربه.

* * *

قبل أن ننتقل إلى تحليل الفضائل نتحدث إليكم قليلاً عن طور التلقي والمزاولة، وهو الطور الذي يتحول فيه الشعور بالسجايا والأفكار والشرائع إلى معتقدات لا شعورية أو إلى خصائص نفسية وفكرية ثابتة.

الإنسان الصغير الجديد في الطور الثاني أو الثالث، يتعلم بسهولة، ما كان يتعلمه جده القديم بصعوبة، ويعرف ما عرف أبوه وأمه وأجداده، فهو يعرف أكثر.

كان الجدّ القديم يتلقى عن الضرورات، وعن الطبيعة، وعن التجارب، فأصبح الثاني يتلقى عن هذه، ويتلقى عن الجماعة، ذخائر تجاربها، ومحاسن حياتها، وغرائب اكتشافاتها ومعتقداتها، وفرائضها وأوهامها.

الحياة رخاء، وأمن، فهي متسعة، متعددة السبل.

كان الطفل القديم في الأطوار الأولى يخاف ويساهم بنصيبه في احتمال قسوة العيش وأعبائه، وهو اليوم يمرح ويلعب، ولا يحمل عبئاً، إلا ما كان من قبيل التمرين والمحاكاة حتى يشتد.

عرِف الفكاهة والعبث، كما يفعل الكبار حين يلعبون حول النار.

الكبار ذوو سجايا، وخبرة، ورحابة فهم، فهو يقلدهم.

يراهم يمثلون الحوادث التي تقع بعيداً، حيث الصيد والمغامرات، ويقلدون الحيوانات، حركاتها وأصواتها، فيحاكيهم.

التمثيل قديم في حياة الإنسان، الأرجح أنه عرفه بعد أن عرف النار، وتجمع حولها للدفء واللعب والحديث.

والرقص فرع من فروع التمثيل، هذا معقول.

رجلٌ لذعته النار، فقفز، وتوثب على رجل واحدة، وأمسك موضع اللذعة بيده.

هذه مفاجأة، يضحك لها الناس، لأن فيها شيئاً غير الجد المحض.

إذا قلده أحدهم ضحكوا أكثر.

هذا تمثيل، ثم رقص.

هكذا اتسعت الحياة رويداً.

الناس يمثلون، ويقلدون بعضهم في الجد وفي الهزل، تحبهم الجماعة.

الإنسان الصغير، يفعل فعلهم بسهولة، لأنه أذكى، طفولته أوسع مدى من طفولة جده، كذلك الطفل في المدينة الحافلة، أذكى من نِدّهِ في القرية وفي الريف، وأوسع أفقاً لكثرة ما يتوارد عليه من الصور.

يزاول الطفل الشجاعة، العطف، احترام الشيوخ.. الإحسان إلى الضعفاء، أعمال البطولة، بوحي من نفسه، وبإيحاء من أبويه، وأسرته، ومن الجماعة.

يزاولها على أنها فضائل يتحتم الإيمان بها، وعلى أنها محاسن وسجايا يتصف بها الأقوياء الممتازون.

فالفضائل أو بعضها في هذا الطور مزاولة وتقليد، يستحيلان إلى أخلاق ثابتة، ومشاعر، بعد قليل أو كثير.

والمزاولة أقدر على ترسيخ الفضائل، وتحويلها إلى مشاعر ثابتة، وأخلاق مغلغلة في النفس من أحكام الضرورات الطارئة والمتكررة.

* * *

أعتقد أني أسرفت كثيراً في سوق الأمثلة وحشدها، وأظن أنه لم يعد صعباً أن تساير جميعاً هذه الطريقة إلى حدود أبعد.

هذه الحلقات الأولى من السلسلة، أو الدرجات الأولى من السلم، فلم يبق ما يمنعنا من التصور.. والتخيل.. والمسايرة.

في وسعنا الآن أن نتصور ما يفعله التقليد، وما تفعله المحاكاة، وما تفعله ضرورات الطور الجديد، ومطالبه، في استكمال معاني الفضائل وإقامة حدودها، وفي ترسيخها، وتوليد المحاسن منها.

* * *

قلنا إن الغرائز هي مادة التكوين الباطن في الإنسان والحيوان.
وقلنا إن الضرورات المتصلة بالعيش، وبنداء الحياة الملح، دفعت الإنسان إلى أن يخرج من أفقه الضيق، إلى آفاق أكثر رحابة، خفتت معها أصوات غرائزه، وخفيت، أو تلطفت، على قدر عرافته في الاكتساب الاجتماعي من مراحل التطور التي يقطعها.
وقلنا أخيراً إن المزاولة والتقليد أقدر على ترسيخ السجايا، وتحويلها إلى مشاعر وأخلاق ثابتة، من أحكام الضرورات.
ونود هنا أن نجري التجربة على الحيوان، لتختبر صحة افتراضاتنا التي بنيت عليها هذه النتائج، ونصيبها من القوة.

فالحيوانات مزودة بإلهام غرائزها إلى حد الجمود، ولكنها قد تكتسب بالتجارب المكررة، ما يضعف عمل هذه الغرائز، ويحولها، فيهذبها، أو يزيدها قوة وضراوة.

ومفهوم أن مجال التطور الطبيعي أمام الإنسان، غيره أمام الحيوان، فنشأة العواطف في الإنسان، أو ذوبان غرائزه الأصيلة، وأنانيته الآبدة، لم يكن نتيجة عوامل شعورية، ووليد عوامل ضرورات حيوية، ثم معنوية، ثم أدبية، لا تخرج في شتى صورها وامتزاجاتها عن أنها ضرورات، متحولة عن ضرورات.

والحيوانات التي اتصلت أسباب حياتها بحياة الإنسان الاجتماعي، فقدت بعض غرائزها، أو خفتت أصوات هذه الغرائز فيها بعامل التدريب والتجربة.

فالكلب والقط يحبان الوطن كالإنسان، ويشعران بقانون أدبي محدود، لأنهما أكثر علاقة بالإنسان في محيط حياته الخاصة.

القط يألم للزجر، ويحزن لفقد سيده، ويعلن الحنين إليه، ويتأدب بدافع شعوره بالعطف عليه، ويفسد بانقطاع هذا العطف عنه، ويغار من قط يزاحمه على مكانته عند صاحبه.

والكلب يتعلم الأمانة والصبر والحب واليقظة والشعور بقوانين العِشرة الأدبية، ويتأثر بالإحسان، والواجب، ويقلد الإنسان في شعوره بالحماية والفخار والزهو لأن صلته بالإنسان كانت ولا تزال أوسع نطاقاً، وأقدم عهداً.

وقد ينحط الكلب أو يتشرد، فيستحيل تأثير سجاياه القديمة، على ما يشبه الأسى العميق والجفوة الكئيبة.

والحمار – وعلاقتي الأدبية به قديمة جداً – وعفواً-، تضيق دائرة اتصاله بالإنسان، ولا تتخطى حدودها الضيقة، لذلك كان تطوره التخلقي، أقل مرتبة من تطور الكلب.

فهل كان هذا هكذا، لأن الحمار أضيق مدى في إدراكه الحيواني، وأصلب غرائز من الكلب؟ أو لأن هناك استعداداً غريزياً هيَّأ الكلب لأن يكون حارساً ورفيقاً، وللحمار أن يبقى كادحاً؟؟

كلا!!

ولكن خفة جسم الكلب، وقوة صوته المتزنة، ودقة شمه، ومقدرته على تصوير مؤثراته، وتشكيلها بهذا الصوت، وقلة مُؤنته، وسرعة عَدوه، ساعدته على الدُّنو من الإنسان كرفيق وحارس، وطبعته التجارب المكرورة، وشعوره بضرورة إدراكها، بطابعها الخاص.

فيتضح مما تقدم، أن التقدم بغرائز الحيوان وتحويلها إلى طور الإدراك، والتعقل، ممكن، متى تعلقت وسائل هذه المحاولة بضرورات عيشه أيضاً، ولكن هذا التقدم لا يتم إلا بعمل التجارب، وبأن تجيء على يد الإنسان.

فالكلب في الحضارة الراهنة، ينقذ الغرقى، ويتعقب المجرمين ويُدعَى للشهادة في المحاكم، ويعاون الجنود، ويترصّد الأشقياء، ويخدم العدالة.. والمجال أمامه ما يزال واسعاً جداً للتطور.

وبعض الخيول ترقص على نغمات الموسيقى، رقصاً مدرسياً موزوناً، عفواً إخواني المدرسين وبعض القدرة العليا في أمريكا وأوروبا تعزف على آلات موسيقية عزفاً دقيقاً.

ولبرنارد شو – الفيلسوف الانكليزي – حمارة ما أشك في أن لها نصيباً وافراً من الإدراك تخطت به حدود بنات جنسها وأبنائه كثيراً إن اطرد القياس، وما له لا يطرد.

وكثير من الحيوانات تطرب طرباً هادئاً أو عميقاً، للحداء، والغناء، والموسيقى فهذا يشير إلى علاقتها القديمة بالفن؟ وإلى أن لها حساً غير حسها الحيواني.

حساً وجدانياً مثلاً..

فهذه نتائج التدريب والتهذيب والمزاولة، ووحي ضرورات العيش، وتأثير المشاركة الطويلة في الحيوان. يقابلها في الإنسان ضعف غرائزه الأولى، وما اقتضاه هذا الضعف من التكتل الجماعي، وما أدى إليه هذا التكتل من نشاط القوة التعقلية فيه، وما مهد له هذا التعقل من ضيق حدود أنانيته، وتحولها إلى غيرية أولية، حتى عرف القانون الأدبي بعامل شعوره العاطفي، وحتى أخذ توسيع مدى هذا القانون، متابعة لمقتضيات تطوره المستمر.

* * *

انتهى بنا الكلام إلى العهد الذي قامت به بعض الفضائل، التي صارت الجماعة إلى الشعور بها، والاستجابة لأحكامها، وكيف تتولى المزاولة والمحاكاة تحويلها، إلى أخلاق ومشاعر، أو ملكات نفسية، وفكرية.

أما كيف تتناسل الفضائل بعد ذلك وتتزايد، فجوابه عند حياة الإنسان الاجتماعية، واطراد جزرها ومدها، وعند تقدمه الفكري، واتساع أفقه.

ونظن أن القوة التي يمثلها الأبطال والزعماء، هي التي كانت ترتجل بعض الصفات التي تغري الجماعات بالحب والتقديس، وتحبب إليها الطاعة والانقياد والالتفاف، حول مرتجليها، فتحب وتدعي محاسن أو فضائل، وتدعي أضدادها ونقائضها، معائب أو رذائل.

فالقوة أقدر على الارتجال والوضع، لأنها أوسع مجالاً، وأوضح غنى، وأقدر على الاضطلاع بمسؤوليات ما ترتجل، وأعمق ميلاً إلى توسيع دائرة النفوذ، وإطلاقها.

ولا شك أن الطور الذي حارب فيه الإنسان، أخاه الإنسان (طور احتكاك الجماعات) هو الطور الذي كان يلد كثيراً من المعائب والمحاسن، والذي اتسع فيه منطق المقارنة والوزن والمقابلة، والمبالغة والتهويل.

فالجماعة القاهرة، تلجأ بعد إصابة غرضها الذي ساقها إلى الحرب إلى أساليب من المعاملة، تكفل الدوام والرسوخ لانتصارها، كإطلاق الأسرى، والعفو عن الجناة والمبالغة في إكرام النساء والشيوخ، والاضطلاع بحماية الضعفاء لاجتذابهم، واتخاذهم مثالاً مغرياً للمناهضين الأقوياء، وبسط اليد بالعطاء، وفرض قانون العفة.

وما يزال هذا مشاهداً في كثير من أحوال الفتح والاستعمار.

والجماعة المقهورة تعاب بالضعف، وتلفق ضد أفرادها المتسلطين حكايات يصنعها الوهم، أو يبالغ فيها.

في جاهلية العرب كانت الجماعات المنتشرة، تتنافس للاستهتار بالقوة، فما يتهيأ له هذا بالغزو، وقوة الشكيمة فيه، كما يتهيأ بانتشار القالة الحسنة عنها، وبذيوع المحمدة، فكانت شارة القوة والمتعة للجماعة، أن يكون أفرادها البارزون، وزعماؤها المسيطرون، كرماء وهابين، وذوي غيرة على الجار، وعطف على الغريب، وإكرام للطارق والقاصد، وحماية للاجئ المستجير.

وكان هذا التنافس نفسه، أسلوباً من أساليب الغارة والحرب، ودلالة على اتساع نفوذ المقدرة على الكسب والإنتاج.

وكانت لكل جماعة صحيفة أو أكثر، تنافح عن سمعتها، وتبالغ في نسبة الكمال والفضائل إليها، والشاعر هذه الصحيفة.

وكان هذا كله مظهراً لمذهب الفروسية الذي ساد في ذلك الطور الهمجي.

* * *

أردت بهذا التمهيد، الذي تناول أطرافاً من الفروض والأقوال، وأساليب من التمثيل، والاستدلالات، والأقيسة، أن تقوم الفكرة التجريدية عن نشأة الفضائل واضحة كل الوضوح في أذهاننا، ويسرني أن أشعر بأني وفقت في هذا ولو قليلاً.

وأعترف لكم بأنه لا يؤذيني، أن يعد كثيراً من هذه الفروض والأمثلة المزجاة خيطاً، وخلطاً، فإن الذي يحاول الإقناع عادة، لا يستقيم له ما يريد بالحجة والمنطق وحدهما.

ففي الإنسان شيء غير العقل المكين، والعلم الراسخ، والعقائد الثابتة. فيه الوجدان، وفيه مشابه الإنسان القديم، واستجاباته الخاطفة، وفيه الضمير الفطري الذي يؤمن بأحكام العقل ومنطقه قليلاً، ويكفر بها كثيراً. فيه هذا الحس الداخلي الذي يكونه تاريخ طفولته القائم في دمه، وتاريخ وراثاته الذي يعد عاملاً له قوته .هذا الحس الذي يتسع فيه أفق الشعورات المبهمة حتى ما تحده الحدود، ويضيق حتى ما يرى سبيلاً غير سبيله.
وعساني – إن فشلت في اكتساب العقول – لا أفشل في اكتساب عطف الضمائر والنفوس، وإقناعها، وأي شيء من الفضائل والرذائل. يمكن أن تكون صلته بالعقل، أوثق من صلاته بالعواطف والنفوس والخيالات والضمائر؟ بل أي شيء منها يمكن أن يكون أقدم علاقة بالعقل، أو أدنى قرابة إليه، من الفطرة الأصيلة؟..

* * *

ينبغي الآن أن نستنتج، أن الفضائل أنانية مهذبة، وأن الرذائل أنانية عارية.

وأن الفضائل أدل على القوة وانطلاقها، والرذائل أدل على فتورها وضيقها، وقد كان الجسد فيما مثلنا، مصدر القوة، أو مظهرها، ومعيار الحكم عليها، في بداءة الحياة.

أما في الأطوار الأكثر حضارة فيكون مظهر القوة مدى الاستطاعة والمقدرة على ضمان الرغائب.

فالثروة أقدر على تحقيق المطالب والرغبات، وبسط النفوذ، من قوة الجسد، وقوة الفكر، ومعيار الفضائل والأخلاق في هذا العصر وفي عصور قبله، القوة بمعناها الجديد (الثروة - النفوذ).

فإيمان الناس بالقوة (في معناها الجديد) إيمان معرفة وتقدير. أما إيمانهم بالفضائل مجردة، فإيمان خيالي أو شعري.

وليس أدل على ذلك، من أن أية فضيلة لا تكون مظهر قوة، لا يكون الإيمان بها إلا شبيهاً بالكفر والإنكار.

وأعتقد أنه لا يسع أحداً أن ينكر أن كل فضيلة لا يكون المتصف بها قوياً، لا تكتسب في نظر الناس معنى الفضيلة ونفوذها.

فأنا إذا عطفت على مريض ملقى في الطريق، وواسيته، لا أنال التقدير يناله رجل بارز في المجتمع يفعل فعلي.

بل إنا نرى أن بعض المعائب والرذائل يوسع لها العرف العام صدره، متى كان المتصف بها قوياً ذا نفوذ.

ولو شئنا أن نذهب هذا المذهب في الاستقراء والمقارنة والتجريد، لألفينا أن الصراحة في رجل ممتاز، تعد نبلاً وعظمة وقوة طبع. وأنها في رجل ضعيف الأثر في تقدير الناس تعد تفاهة وغثاثة وثرثرة، وضعفاً عن ضبط النفس.

والأثرة في عظيم قوي، دلالة على امتياز شعوره بنفسه، واعتداده بها فهي حق معترف به، ولكنها في إنسان وسط، باطل، وخروج على سنن الحياة المعروفة، ومألوفاتها المتبعة.

ورقة الجانب والبشاشة، والدعة، وصدق الشعور، والأريحية، ونبل الاتجاه والإيثار في رجل فقير، لا تساوي كلها في ميزان الفهم والإعجاب، ابتسامة فاترة، أو إيماءة مكرهة، من رجل ذي نفوذ، ولتكن بعد ذلك بارقة كاذبة، لا أمل فيها.

والناس ما يزالون يترنمون بالصدق، ويحضون عليه، ولكنا لا نجد له أثراً بينهم.

وقد أصبح الكذب، وما ولد من رذائل المكر والخداع والمداهنة، والتصنع، والمداورة، والرياء، قانون الحياة الاجتماعية.

ونحن نمتدح بصدق الوعد في الرجل المرجو، ولكنا نكره ألا يعدنا بتحقيق مطالبنا، حتى إن كان تحقيقها غير ممكن.

والرجل إذا قال هذا غير ممكن كنا له أشد كرهاً.. نحب أن يعد ولو لم يفِ لأن الصدق في هذا الموقف تخييب قاطع للأمل، والوعد الكاذب عزاء، ولو باطل.. إذاً فالكذب يلقى تشجيعاً.

تفطن الناجحون لهذا الضعف، فلا تلقى (للا) أثراً في صلاتهم بالناس، فلا جرم أن استحالت حياتهم كذباً مألوفاً ترضاه النفوس، وما يصدق على الكذب، يصدق على رذائل أخرى.

فإذا قال قائل، إن حظ الفضائل أخذ في الإدبار، لم يقل إلا بعض الحقيقة.. الحقيقة كلها، أن حظ الفضائل قد أدبر أو زال.

فنظرتنا إلى الفضائل بعد قياسها بهذه الأقيسة الصريحة، التي مهدنا لها بعدة أمثلة، خليقة بأن تفقد حماسها وحرارتها، وأوشك أن أقول أملها.

وقد بينّا أن بعض الفضائل كانت تقاليد بهيجة، تحولت بالمزاولة والتشجيع إلى مشاعر وأخلاق ثابتة، يوم كانت الحياة أقل تعقداً، ويوم كانت الجماعة أسرة مكبرة، تتوحد فيها المشاعر والمقاصد، وتقوى بينها الروابط الطبيعية، أو يوم كان الاتصاف بها ضرورة لتوسيع مدى النفوذ، وبسط سلطان القوة، بين الجماعات المناورة.

وهذه كرّة الزمان تفقدها سحرها ونفوذها.. شاخت وضعفت، كما يشيخ ويضعف، كل شيء في الوجود.

كانت شيئاً جديداً في حياة الجماعات، وشيئاً لامعاً يزيد روابط التماسك الجماعي، وقانوناً فاتناً يتضمن حماية الضعيف، ومعنى الاعتراف بقرابته من الجماعة القوية، ويتضمن معنى السمو بالقوة والرجولة.

وكان القانون الأدبي معنى لذيذاً تسرب في روح الجموع فساد وظهر كما يسود كل مبدأ شريف القصد، تستمد منه الجموع روح الأمل والعزاء والتفاؤل، وتستروح منه نسمات التساوي مع القوى.

وما زالت الجموع هكذا، تستمد من فهمها الفضائل، ومن الإيمان العميق بها، روح الأمل والعزاء.. ولو كانت وهماً خلاباً.

ومن السهل أن نحدد وقع هذه الألفاظ الساحرة في نفوس الجماعات الأولى: الشفقة، العدالة، الخير، الثبات، التضحية، الإيثار، العفة، الصدق، متى عرفنا أن كلمات: المساواة، الحرية، الاشتراكية، الحق، المبدأ، حماية الضعيف، الديمقراطية، تفعل فعل السحر، في نفوس الملايين وتقودهم إلى التضحية في القرن العشرين، وتنزل من نفوسهم وأفكارهم منزلة الأحلام البهيجة، وتخدر أعصابهم بصورة ذلك الفردوس الأرضي الذي تزوره القوة – أو الفلسفة.

وبالرغم من أن العقل لا يؤمن بإمكان المساواة والحرية، المطلقتين، وبالرغم من أن منطق الحياة يجعل الحق دائماً في جانب القوة، وبالرغم من أن حماية الضعيف، وضمان حقوقه الإنسانية، ليست أكثر من وهم فعال تسخر به الجموع، وبالرغم من أن الاشتراكية حلم لم تحققه سلسلة الجهاد الطويلة في آلاف السنين، فإن النفوس، ما تزال ترتاح إلى هذه الأوهام الباطلة، وتحرص على أن تبقى لها.

فهل الفضائل ألفاظ اخترعها القوي ووشاها بالأحلام والتهاويل لاستغلال الضعفاء؟. أما تيارات الحياة المتدافعة فإنها تندفع في سيرها تكتسح الضعفاء ومبادئهم وآمالهم وأوهامهم وتكتسح الفضائل والأخلاق لا قانون لها إلا القوة؟؟

وارحمتاه للضعفاء، لماذا لا يتعلمون فن القوة إذاً ليكونوا أقوياء أو ليتقوا شر القوة؟..

صحيح أن الإيمان بالفضائل في المعتقدات العامة لا يمكن أن يموت أثره في النفوس.

وصحيح أن المشاعر والمعتقدات الثابتة في الفضائل تكون أقوى نواحي القوة في روح الأمة، والجماعة، والفرد. لكن هذا الإيمان، وهذه المشاعر والمعتقدات أصبحت في نفوس بعض الأفراد والجماعات نقطة ضعف تستغلها القوة.

كم من المجازر البشرية انقادت الجماعات إليها مأخوذة بوهم الحق والعدالة، والدفاع عن الفضائل المستباحة؟ والقوة من ورائها لاهية عابثة، تعد الأغلال والأكفان لهذه الجماعات بعد الانتهاء من جهادها؟

وكم استغلت أطماع القوة، مشاعر الجماعات ومعتقداتها، باسم إقامة موازين الفضيلة والحق، حتى إذا بلغت غايتها بهم، أقامت موازين العسف والجور والرذيلة، عارية، مكشوفة...؟

ما ننكر أن تاريخ كل أمة حية لا يخلو من محاولات إصلاح يقوم بأعبائها فرد، أو أفراد تصح نزعاتهم إلى الخير، وتصدق جهودهم في الدعوة إليه.. ولكن سرعان ما يبتلعها الزمن، وتطويها القوة.

ويستحيل أن تتحول تيارات الحياة الجارفة عن مجراها الطبيعي ليقوم ميزان الفضائل بحقه في قيادة الحياة، وتسيير دفتها.

ويستحيل أن تصاغ الحياة في قوالبها الأولى، وأن تعود إلى قوانين الفطرة القديمة، وأن يتقلص ظل التمدن الاجتماعي إلى حدود هذه الفطرة، ليعاد ترتيب الفضائل والرذائل على ما يضمن للحياة استقرارها وسموها، وفقاً لما يقننه منطق العقل الإنساني البصير!

وها نحن نزن الفضائل –كما هي في واقع الحياة – ونحللها ونسبر غورها فما نراها إلا ألفاظاً براقة، وخيالاً ساحراً، ومبادئ لامعة، لا يمكن أن يتكون منها روح عام لجماعة من الجماعات أو لأمة من الأمم؛ بعد أن تقدمت الحضارات واندفعت في سبيل القوة والطغيان؟

ولا نرى الفضائل – فيما تمارس – إلا أنانية راسخة تقوم على النفع يرتجى، أو على اللذة تبتغى، أو على الأمل يطلب، هي وسيلة تحقيقه.

وهنا قد يسأل سائل عن سر إعجابنا بالفضائل؟ والجواب أنه ما من فضيلة تمارس إلا وفي أطوارها دلالة على قهر النفس، وكبح غرائزها، وجهاد لمطالب هواها، فلا جرم أن يكون إعجابنا بها، إعجاباً يؤدي معنى الاعتراف بقيمة شيء نجد صعوبة في اكتسابه، أو نحس هذه الصعوبة في اكتسابه، وما تغلو قيم الأشياء عادة إلا بمقدار الصعوبة في الحصول عليها، وإلا بمقدار الحاجة إليها.

والفضائل صعبة ولكن لمن يكون إيمانه بها إيمان تضحية لا تنظر إلى جزاء وبيت المتنبي:

لولا المشقة، ساد الناس كلهم .. الجود يفقر، والإقدام قتال

تعليل دقيق لهذا الإعجاب، وإن كان تعليلاً ظاهراً للعجز الشائع عن السيادة والإقدام.

فالإيمان بالقوة ونفوذها، هو، حقيقة الحياة، وهو قانونها في القرن العشرين، وفي القرون الأولى، وفي أطوار الحياة القديمة البعيدة!

والدعوة إلى الفضائل حلم جميل بالحياة، كما يجب أن تكون، لا كما هي كائنة، حلم ما تحققه إلا القوة.

فمن يسعه أن يتكهن بأن الاتحاد مصير القوة والفضائل، والعالم مندفع في سبيل الطغيان والجحود؟؟..

* * *

نتقدم الآن إلى تحليل بعض الفضائل وتجريدها، والمقابلة بينها وبين نقائضها، لنرى صحة قولنا أن الفضائل أنانية مهذبة، وأن الرذائل أنانية عارية.

فالكرم لا شك، صفة فاضلة، تنطوي فيها صفات تتعدد مسالكها ودلائلها، وهي ككل صفة، لم تنشأ هكذا كاملة السمات، بل تدرجت في سلم التطور حتى بلغت غايتها المعروفة.

وقد قلنا إن الإنسان في حياته الأولى، كان يمتحن بعواد من الجهاد ومفاجآته الطارئة، تتطلب المعونة والنجدة. في هذا الطور قد يزيد من نشاط الإنسان الكادح، فضل يتخذه يداً على الجماعة، ولا تزيد من طعامه فضلة. فالطعام يدخر، وفي عدم ادخاره استهداف لمضرة الجوع والفقدان، ولكن النشاط يبذل، وفي بذله منفعة، تعين على تمرين القوى وحفزها، وتعين على اتساع وجوه الحيلة، واستمراء لذة الظفر والاكتشاف، ونشوة انتشار الصيت، وهو بعد قرض واجب الأداء على الجماعة، في الغد الغامض، وضرورة من ضرورات التكتل لدفع المخاطر، والاستئناس والسلوة، وتقليل هيبة المخاطر المترصدة له. فالنجدة إذاً أولى معاني الكرم.

والكرم لم يكن في أول نشأته تضحية وإيثاراً، وغراماً بالبذل، إنما كان -ولا يزال- دلالة افتخارية على اتساع نفوذ القوي، ومقدرته على مواصلة الجهد والإنتاج، على أنه لا يتناول إلا الزيادة، وسبيل تعويضها مجهودة هينة، بعد اتساع رقعة التجربة والسعي، وامتداد مذاهب الحيلة، وحنكة المزاولة، واتساع الثراء.

ثم هو بعد صفة لازمة لمن تحلهم قوتهم من الجماعة محل الأبطال والقوّاد، فالكريم أكثر أعواناً، وأبعد صوتاً، وأعمق أثراً في النفوس، وأرفع منزلة في العيون، ولا يزال في الناس من ينزلهم كرمهم منزلة الزعماء المسيطرين. والكرم فضيلة متعدية، لذلك كان الثناء والإقبال على تمجيدها، أكثر من الثناء والإقبال على تمجيد العفة، مع أن العفة قهر صارم للنفس، ورمز للقوة، أكثر مما يكون الكرم الذي هو في معناه، وطبيعة دوافعه، انتفاء للخوف من الفاقة، أو توكيد للمقدرة، أو استغراق في لذة نفسه، أو سعي وراء مطلب أدبي، يكون أغلى من المادة المبذولة في نفس الباذل.

والبخل فطرة وشدة، تأخذ بحساب دقيق، وتعطي بحساب أدق، وهو رمز للخوف، وما يعيب الإنسان أن يخاف بل يعيبه أن يكون آدمياً. والبخل إن كان رذيلة، فهو رذيلة لازمة إن كانت شراً في ذاتها فليست شراً على غيرها.

وهو إن دل على قصر الذهن، وفتور حيوية الفكر الطامح وضيق مدى النفس والخيال، في مجال المعنويات المنطلقة، دل على فهم عميق لطبيعة الحياة، وحقيقة الناس، ودخائل سرائره المطوية.

فإن كان الكرم شعراً وحماساً، وخيالاً جميلاً، كان البخل حكمة وفلسفة وفهماً عميقاً.

والكرم يعطي ليأخذ، والبخل اكتفاء.. وما عاب الناس البخل، إلا لما فيه من أثر الأنانية الواضحة، والاعتكاف في حدود الذات، ونحن نراه أنانية محدودة قانعة، ونرى الكرم أنانية واسعة جشعة، هما استرقاق النفوس والألسنة، وذيوع الفخار، وتحقيق المطامع، والاستمتاع باللذة الخفية.

* * *

والشجاعة ليست خلقاً طبيعياً في الإنسان فما يتصف بها الناس إلا اضطراراً، أو فراراً من عار، أو طمعاً في تحقيق غاية، أو منافسة لندّ، أو دفعاً لسبة، أو خطأً في تقدير نتائج المخاطر.. فبماذا من هذه الأسباب تستحق أن تدعى فضيلة؟

والجبن في منطق العقل السديد، وليد الخوف، والخوف ليس منافاة للعقل، ولا للطبيعة الإنسانية، فهو أقوى غرائز الإنسان، وأداة شعوره بالأخطار، وسبيل تجنبها.

فإذا خاف الجبان مجهولاً، فشأن النفس البصيرة أن تخاف المجهول، وإذا خاف المجازفة، فإنما يرجح السلامة والهدوء.

إنما كان الجبن سبة أو عيباً، يوم كانت الدنيا قائمة على المجازفة، ويوم كانت حرباً شعواء بين الإنسان، ومطالبه الصارخة، وبين الطبيعة بأهوالها المتراكبة، ومخاوفها المطبقة، ويوم كان اقتحام المجهول، ولقاء المخاطر، ضرورة الفرد، وضرورة الجماعة، لضمان العيش والأمن.

ومن يستطيع أن يزعم إن ضنَّ الحي بروحه، وحرصه على صيانتها رذيلة إلا في منطق هذا العرف الآبد؟؟

إن الإنسان إذا تغلب على وحي غريزته، فاستهان بالمخاطر واستمرأ لذة المجازفة، كان خارجاً من حدود غريزته وفطرته، داخلاً في حدود مطلب من مطالب الضرورة، أو مطالب العواطف واندفاعاتها، ولهذا حدوده الخاصة، فإذا لم تلد هذه الحدود، وإذا لم تلد عواطف الشجاعة واندفاعاتها، حجة يستقيم بها الإقناع في منطق الجبان، كان ذلك حقاً، وحقاً كله.

نعم إنه ليس من الرشد في عرف نفس اتسع مدى فهمها للحياة وشعورها بامتداد آفاقها، أن تفقد في سبيل صيانة النفس، أعز أعلاقها.. ولكن هذا مطلب من مطالب طور خاص، في حياة الإنسان، ونضوج ذهنه، فذاك حيث عد الجبن رذيلة، حتى بعد أن أدبرت الحياة البدائية أدبارها، واتسعت حدود الإنسانية بمعنوياتها الحافلة النازلة من

الإنسان منزلة لحمه ودمه وأنفس أعلاقه. والشك في أن الجبن رذيلة، ما يزال قائماً في النفوس، وإلا لماذا جنح الناس إلى توليد فضائل نصفية منه، دعيت وزناً وتقديراً، وتبصراً واعتدالاً؟ وإلى توليد رذائل نصفية من الشجاعة، دعيت تهوراً وتطرفاً واندفاعاً؟ أليس لأن القرابة بينهما واضحة؟

والحق إنا نرى القرابة بين معظم الفضائل ونقائضها وشيجة، والتداخل واضحاً.

وما نعتقد التفرد بهذه النظرة، أو السبق إليها، فقد قاد الشعور بهذا التداخل – فيما نرجح – بعض الفلاسفة قديماً وحديثاً إلى اعتبار الفضيلة، وسطاً بين رذيلتين، فالكرم عندهم وسط بين رذيلتين، البخل والسرف، والشجاعة وسط بين رذيلتين، الجبن والتهور.

ولكن ثمة فضائل لا تقبل هذا التقسيم، فبقيت على الشذوذ وسط ذاتها، فالأمانة، والصدق، والعفة، وأمثالها، لا تنزل فضيلة منها منزلة وسطاً بين رذيلتين.

فالأمين يكون أميناً كلما بالغ في أمانته، والخائن يكون خائناً مهما قصر به مدى خيانته، ويكون صادقاً أو كاذباً، ولا وسط، وللمبالغة بعد، حدودها وصيغها الفكرية واللغوية.

فهل نلام على الشعور بأن العدالة المنطقية، لم تعط الرذائل والفضائل حقها من التقدير والفهم الدقيق؟..

هذه رذيلة الحقد، لماذا عدَّت رذيلة؟

أينقص بالنفس أو ينحدر بها، أن تحقد على من أساء إليها، أو اغتصب حقاً من حقوقها، حتى ينصرف بغيظها الانتقام والاسترداد؟ أو ينصرف به العفو بعد الظفر؟

وهذه فضيلة العفو القادر! أليست أبلغ الانتقام وأدهاه، والانتقام الذي يتضمن الشماتة البليغة والتقريع اللاذع، للضعف المنكر بعد اعترافه بالهزيمة؟.. أليست عدول الكبرياء عن

تشديد النكير على الجسد، إلى تشديد التنكير على الروح؟ أليست الانتقام الذي يفثأ غليان النفس، ويطفىء أوارها ثم يستلّ في دهاء سخيمة قلب الضد المندحر ويكسر سَورة الشر فيه؟؟..

فما بين معظم الفضائل والرذائل إذاً من الفروق، ما بين الظلم والعدل، والحسد والغبطة وأمثالها.

هذه أضداد ونقائض، وتلك قرابة ومجاورة، وما على هذا الظن غبار، ما دامت النفس الإنسانية، وطبائعها الأصيلة، المنبع الذي استمدت منه الفضائل والرذائل خصائصها وسماتها وإنباضها.

* * *

والقناعة كانت فضيلة – ولا تزال فضيلة الصابر المحروم – لأنها رمز الاكتفاء القوي عن الناس، والتحكم في مطالب النفس، وحد طماحها، ترفعاً عن التدلي لالتماسها منهم.

ولكنها اليوم فضيلة خاملة، توشك أن تنقلب رذيلة، في عرف الحياة الراهنة، ومصطلحات طورها الحديث، فهي معدودة في الفقير تسليماً بالعجز عن إدراك الرغائب، وفي الغنى دلالة الاستكفاء.

ولو قلنا إنها في الغني والفقير، دليل سمو النفس وترفعها، لم نقل حقاً.

ولا يسعنا أن ننكر أن قناعة الفقير والضعيف والعاجز، عزاء يلتمس لتخفيف وطأة الشعور بالحرمان، عن النفس.

وهذا المتنبي يقول:

كل عفو أتى، بغير اقتدار .. حجة لاجىء إليها اللئام

فالعفو عنده لا يكون إلا من قادر، وهذا مطابق للاصطلاح. فلماذا لا تكون القناعة فضيلة – إن كانت – إلا ممن تتوفر فيه المقدرة على تحقيق الأطماع.

والتواضع توكيد للذات، وإيمان عميق بها، ويخطىء من يظنه إنكاراً للنفس، واعترافاً صادقاً بضعفها، وهو لهذا لا يكون في أروع صوره، وأكثرها فتنة، إلا إذا جاء دلالة على قوة ممتازة.

والكبرياء أنانية واضحة لا تعرف الدهاء والحذق، فهي رذيلة ظاهرة.

ولو قابلنا بين الإيثار والأثرة ألفينا الإيثار أكثر جشعاً، وأوضع طمعاً، فالإيثار نظر حاذق إلى ضمان فائدة الحب والإعجاب في الحاضر، وما يفيد بهما في المستقبل، والأثرة نظر ضيق إلى ضمان فائدة في الحاضر، تقتصر على المادة، فهي عارية لا تتستر، فتتيح بوضوحها الفرصة للمقاومة والفهم والحكم الدقيق.

فالمتكبر، والأناني الأثر، أقصر نظراً إلى مصلحتهما، وتوسيع حدودها.

* * *

والاعتراف بالنقائص فضيلة دون شك. ولكنها أيضاً فضيلة ذات مغزى نفعي كالتواضع، فما يعترف إنسان بنقيصة فيه، إلا وهدفه أن يتصف بالكمال في ناحية أخرى، هي أكبر عنده وأغلى.

والعفة لم تكن رياضة عسيرة للنفس وجهاداً مستمراً لغرائزها، وقمع شهواتها الملحة، إنما كانت مطلباً من مطالب الحياة الاكتفائية الحريصة على أن تبقي لها ذخيرتها من النشاط والقوة، حيث كانا سلاح الحياة، وأداة صيانتها وإنما كانت دليل الزهد في مناورة الجماعة، لضرورة الحاجة إلى حمايتها، والاستقرار فيها.

فهي في هذا القياس صفة لا أثر فيها للترفع الأدبي المختار عن انتهاك الحرمات.

على أنها قد تكون عجزاً وفتور حيوية!

ومن يرى أن عفة الشيخ في طور كلامه واسترخائه فضيلة، إنما هي فضيلة السن، وقانون الفتور، وليست فضيلة القوة والصبر والمغالبة، كما هي في الرجل المشبوب القادر على تأمين مطالبه.

* * *

والكذب يقل حيث يقل التزاحم على أسباب العيش، فهو في القرية، أقل منه في المدينة.

ففي القرية يعيش الناس على الزراعة مثلاً، وعلى العمل فيها، أو على أسباب محدودة للعيش، فلا مجال للتنازع، ولا للشعور بالحاجة إلى الرياء والملق. لوضوح استقلال الحياة واكتفائها، فما يكرم الإنسان فيها طمعاً في ماله، ولا يكذب عليه للاحتيال على الزلفى إليه، ولكن يحب لسجايا الخير فيه، أو يخشى جانبه لقوته البدنية مثلاً، وهذا يدعو إلى تحاشي سبيله أكثر مما يدعو إلى تملقه والكذب عليه.

لكن الكذب في المدينة العامرة، ضرورة اجتماعية واقتصادية، تعين على الرواج، وانتعاش حركة التبادل، والإقناع، فلو ساد الصدق فيها، أصيبت مجالات الحركة والنشاط، بركدة، يتضاعف معها الشعور بأعباء الحياة وهمومها.

والكذب دليل فقدان الثقة بنفع الصدق، وهو أكثر الرذائل نسلاً، وأرشقها دخولاً على النفوس، وأوسعها حذقاً.

فالرياء، والتصنع، والغيبة، والخداع، والمكر، والمداهنة، والمداورة، والمصانعة، والنفاق، والغدر، والدهاء... من مواليد الكذب ومركباته.

وقد ضمنت له هذه الكثرة، الشيوع والسيطرة، وضيقت مجال الصدق حتى اعتبر خشونة، وجهامة، وقلة بصر بالحياة وسذاجة.

* * *

والصبر والثبات – على أنهما من الصفات الفاضلة، كانا ضرورة من ضرورات الجهاد للعيش، فما يلجأ الإنسان إليهما إلا وهما ضرورتان، لا رجاء في درك مراده إلا بهما.

وقد يكون معقولاً أن يزهد الإنسان في بث فكرة أو مبدأ أو إقامة حقيقة، متى أضنكه الجهد، وناء به في هذه السبيل.

لكن الإنسان الساعي لقوت يومه، أو إقامة مأواه، أو مطاردة فريسته أو دفع خطر داهم عن نفسه، ما يجد بداً من الصبر والثبات، لأن خيبته هنا لا تقطع عليه لذة فكرية، لا يستحيل العيش بفقدانها، بل تقطع عليه أمل نشاطه، وقوام حياته، ومادة بقائها.

هذا في الأطوار القديمة..

وفي أطوار الارتقاء، يكون الصبر والثبات، ضرورة يمليها قانون التجارب وقانون الرغبة في سداد السعي، والحرص على ألا تفقد النفس مطالبها، وألا تألف الاندحار والخيبة، فتفسد بهما عقيدتها في قوتها ومضائها، أو عقائد الناس فيها.

والأمانة شأنها هذا الشأن أو ما يقاربه.

فقد كانت – على الأرجح – دليل سيطرة القوي، وندرة مثاله، ودليل الثقة باستغنائه عن الطمع في أعراض يكثر مثلها فيما يحرز أو فيما يستطيع.

ولا شك أنها كانت مقصورة على من هيأت لهم قوتهم من امتداد النفوذ بين الجماعة سبيل السلطان عليها، فهي سمة القوي الذي لا تحد حريته وشهواته، إلا قيود قوته وحدودها.

وهي اليوم ضرورة لصيانة السمعة، واستجلاب الثقة والفرق من اختراق حدود القوانين، والاستهداف للمضرة والانهيار، وجرح العزة والشرف.

ونحسب أنه لو حلت الإباحة والإطلاق محل التحريم، والتقييد في قوانين الحياة الوضعية، لكانت الخيانة، واستباحة الحقوق، واحتجان الودائع، أول زلزلة تصاب بها البشرية عامة، إلا من عصم الله، وعصم الايمان به.

* * *

قسنا الفضائل والرذائل – أو بعضها على الأصح – بهذا المقياس الذي لا تقاس به الأشياء إلا مجردة عارية، مما أضفت عليها خيالات القرون، والأفكار الذهنية والمدرسية.. ونعتقد أنه لم يعد لنا معدى عن الاعتراف بأن الفضائل في مراميها الخفية، أنانية مهذبة، ميزان الربح والخسارة فيها قائم منصوب.

وجملة القول إن معظم الفضائل لا تنتسب إلى أشرف عواطف الإنسان أو غرائزه؛ بل تنتسب إلى أنانيته، وشعوره الخفي بالمصلحة.

ولم يكن حكمنا على الفضائل وتجريدها إلا تقديراً دقيقاً، لأثرها الحقيقي في الحياة، وعلاقاتها بالنفوس.

وقد رأينا أن بعض الرذائل، ألصق بالحياة، وأقرب إلى طبائع النفوس من الفضائل... ويؤلمنا أن تكون المماراة في هذا ضرباً من العبث.

ونحن لا ننكر أن الفضائل في حقيقة معانيها ومطالبها جهاد صادق للسمو بالنفوس إلى آفاق من الحرية والخير، تخرج بها من حدود المادية الجامدة، وترتفع بها عن قوانينها الترابية ولا ندعي أن الإنسان قدير على أن يأتي بأشرف ما فيه من خارج نفسه وطبائعه، ولكنه

مطالب بأن يحول ما فيه من نزعات الشر والأنانية إلى أسمى مطالب إدراكه العقلي والوجداني، كما تحول الرياضة العنيفة، لحمه المترهل إلى عضلات قوية.

* * *

وقد حللنا بعض الرذائل التي نسميها معائب عقلية أو طبْعية (كالبخل، والجبن والكبرياء، والأثرة) تحليلاً نخشى أن يؤخذ دليلاً على عقيدتنا في رجحانها على نقائضها، وليس لنا في الحقيقة غرض من هذا التحليل، والمقابلة إلا الإشارة إلى أن هذه الرذائل أو بعضها من سنن العقل والطبائع أو من فرائضهما.

ولنا رأي نخالف به الاصطلاح الشائع في الفضائل والرذائل خلاصته أنا لا نرى صفة من هذه الصفات التي جرينا في هذا الحديث على تسميتها فضائل ورذائل، ما هو خليق بهذه التسمية.

وإنما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو، على وفاق نصيب المتصف بها من القوة والضعف، أو على نصيبها من الشيوع والخمول، وأساسها الأنانية والمصلحة.

أما الفضائل التي نراها خليقة بهذه التسمية، فهي التي نزل بها القرآن ودعا إليها. تلك فضائل، لا يكون للمتصف بها، والمؤمن بقوانينها، نظر إلى مصلحة أو سمعة.. وإن كان شيء من ذلك فالمثوبة عند الله، والزلفى إليه.

فالكرم فيها إحسان إلى مستحقه، ينزل منزلة الحق المفروض له، وخروج من سلطان المادة وحدودها في سبيل الله.

والأمانة مبدأ يعامل الأمين به الناس، كأنه يعامل الله.

والصدق ميزان دقيق، لا يستقر فيه الغش والتدليس، ولا يستقر فيه الحقد والرياء.

والتواضع إنكار للذات وقوتها، في سبيل إيمانها بقوة الله.

والعفة سمو بالنفس لا تشيل بميزانه خالجة من خوالج الشيطان والهوى. فإذا انحرفت بها نزوة عارضة من نزواتها، لجأت إلى التفكير والتوبة والاعتراف، لتتطهر من إثمها.

وهكذا حتى تكون الفضيلة حياء من الله، تتجنب به مواطن حرماته فلا تأتيها؛ ولو أتاها الناس جميعاً.

* * *

وخير لنا أن نحجم عن تحليل بعض الرذائل (التي ندعوها رذائل روحية) واستجاباتها العصبية الظاهرة، فهي خليقة عندنا بأن تدعى أمراضاً نفسية، أو جسدية، أو عقلية، أو هي مزيج من ثلاثتها.

وإنا لنجد بعض المصابين بأدوائها أصح نظراً إلى الفضيلة، وأصدق في تقديرها، والإيمان العميق بها، من المتشددين فيها لأن ممارسة هذه الرذائل تنتهي بمن يمارسونها إلى ألوان من العناء، والمشقة والمضض، ترهقهم بأعبائها، فهم أصدق نزوعاً إلى التخلص منها، وإن كان الاندحار نصيبهم -في الأكثر- كلما نازعوا نفوسهم على الإفلات من قيودها وأغلالها.

فنزوعهم إلى الفضيلة، وظمؤهم المحرق إليها، أشبه بظمأ السجناء إلى الحرية، والقلق المضطرب إلى الراحة والطمأنينة، والمقاربة بين شعور الإنسان الطليق، وشعور الإنسان المكبوح، بجمال الحرية وفتنتها، تكشف لنا عن شعور المصابين بهذه الرذائل.

وهي عادة عرض أصحابها باليأس من الخلاص، فذاك حيث يتسمون بعدم المبالاة، والاستهتار الظاهر، وهما دلالة اليأس في الشفاء.

فلا غرو أن نرى في بعض المصابين بهذه العاهات النفسية التي نسميها رذائل؛ قبساً خاطفاً من الشعور بهدي الضمير، وصدق التأثر، والإحساس بالوخز والمرارة ولا نراه إلاّ نادراً في نفوس المتمسكين بالفضائل لا تمسك الإيمان الصادق بها، بل تمسك الخوف مما تجر إليه نقائضها وأضدادها، من فقدان أمل، أو مكانة.. وقد يكون تمسك من لا يحس من نفسه النزوع إلى هذه النقائض والأضداد.

ولو أن رجلاً ذابت في عينه ونفسه مغريات الرذيلة، وتزايلت فيه أسباب النزوع إلى متعاتها السانحة، فصدف عنها صدوف الواثق بعجزه أو بعجزها عن إثارة رغبته واشتهائه، لما كان خليقاً بأن تعد فضيلته فضيلة قوة وجهاد في منطق العقل السليم.

فما تكون الفضيلة جديرة بهذه التسمية، إذا كانت إيماناً، حتى تكون غلبة وانتصاراً وقوة وجهاداً لإغراء الرذيلة، وكبحاً لميل النفس المسعورة، وحنينها الملحّ إليها.

* * *

إن كثيراً من الفضائل لا يكون مطلباً خلقياً في البلاد التي تتسع فيها أسباب الكسب، وتتنوع وسائله، ويتكاثف فيها الاجتماع. فالناس في مثل هذه البيئة يتسامحون في طلابها، لأن ضرورات التكاثف وما تستلزمه، من الاتصال والاشتباك واتساع العلائق، تصرفهم عن التماس القوانين الأدبية، فيفهمون الحياة على حقيقتها الواقعة، وينشغلون عن النظرة الشعرية المثالية إليها.

فمتى تكلفت الأنظمة بحماية الحرمات الفردية، وبحماية الحرمات والحقوق، وقام الفرد بواجبه القانوني في صلاته المعينة الحدود بالناس، استوى في القمة، الحليم والأحمق، والعفيف والمستهتر، والكاذب والصادق، والشجاع والجبان، والأناني والإيثاري، ما دامت رذائل إنسان لا تتناول غيره بالأذى والإساءة.

وليس لنا أن نطمع في تحويل تيارات الحياة، فالحياة لا تخرج على قوانينها، ولا تتكيف على ما يطابق ميولنا، وإنما الإنسان يكيف حياته ومطالبه على وفاق ضروراتها.

فهل كان انحراف الناس بإيمانهم بالفضائل، إلى هذه الهمود ضرورة، اقتضاها سير الحياة العامة، وقوانينها؟؟..

إننا نعترف في ألم بهذه الحقيقة.

يقول الأستاذ العقاد: "ليس بحيِّ الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة، على أنه لو وُجد ذلك الرجل بين الناس، لكان كمن يعاملهم بصك يتقيد به من جانبه، ولكنهم هم من جانبهم لا يتقيدون به."

كم يلقى العقل، وتلقى النفس الشاعرة، في التسليم بهذه الحقيقة من مضض وألم؟. أترانا نريد من الضعفاء والموتورين، والعاجزين والفقراء.. أن يؤلفوا جيشاً أعزل لحماية الفضائل مما جرّت إليه هذه النظرة العامة؟؟..

أم تراه واجب الناشئين الحائرين؟

أم واجب القوانين التي تعرف كيف تعاقب الرذائل، ولا تعرف كيف تناصر الفضائل وتثيبها وتشجعها؟؟..

أم أنه واجب الأقوياء والقادرين، وواجب قادة الأمة وسراتها المتسلطين على مجاري حياتها، والذين حذقوا فن القوة فيها؟؟..

إنما ننهض بالمبادىء والنزعات الطيبة، بالتشجيع والمناصرة والإقبال.

فهل يلقى الخلق الفاضل بيننا التشجيع والمناصرة؟؟..

كم يلقى الصادق، والصريح، والعادل، والأنوف، والصابر، والمستحي، والأمين، والرحيم من المشقات، ومن انزواء الناس عنهم ومن المقاومة الظاهرة والمستورة لخطواتهم؟؟

وكم يلقى الكاذب اللبق، والماكر الختّال، والضارع الشره، والظالم القوي، والجريء الملحف، والطامع المتوقح، والخؤون، ومغلق الحس، من الارتياح إليهم، والاستجابة لفرائضهم، والإعجاب بهم، والرهبة منهم؟؟

أفهذا لأن موازين المحاسن والمقابح قد اختلت قوانينها وتبدلت؟

أم لأن تيارات القوة اختطت لسيرها مجرى أعوج غير مجراها الطبيعي؟

أم لأن الفضائل أدوات زينة، وشارات تجمل، كل شأنها أن تستكمل بها، وبشواهدها المسرودة، معاني الترف والنعمة ومطالب الذوق الناعس، فما تصلها بحياة الإنسان، صلة بسلاحه، وعدته، وأفكاره، وعقائده؟؟

أم لأن النفوس عرفتها حلية زائفة، وزخرفاً براقاً، ووهماً في ألفاظ فهي لا تنزل منها، ومن الألسنة، إلا منزلة الشعر الجميل، والخيال البهيج، تنطلق به مناسباته السانحة في مجالس الطرب والاسترخاء، ثم لا ورود له بعد انقضاء دواعيه، وزوال أسبابه؟؟

أرأيتم كيف يتقلص نفوذ الفضائل في هذا الزمن العجيب الذي اتضحت فيه سبل الحياة وحقائقها، وقلت مساتير النفس وانكشفت مكنوناتها؟

أرأيتم كيف تقلص في عصور عجيبة قبله، امتطت فيها الرذائل، غوارب الفضائل تقودها وتتخذ منها جُنة تُتقى بها المخاطر، وتُدفع قالة السوء، وتسخر الجموع وتُخمد الفورات..؟

* * *

بين جزر هذا الحديث ومده، رأيتم الفضائل التي سميتها محاسن، سلعاً مزجاة يرتفع بها الميزان تارة ويهبط.

ورأيتموها تجارة يراد بها الغنم، وفخاخاً يصاد بها العاجز والغافل، وسلاحاً يغتال به الضعيف، ولهواً تستمد منه اللذة.

ورأيتم فضائل الدين التي بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم بها مكارم الأخلاق – تضحية لا ينظر من ورائها إلى غرور الدنيا، وأعراضها الزائلة.. تضحية لا تضمن للمقدم عليها متعة ولا فائدة.. إلا الزلفى إلى الله، ونِعْمَتْ تجارة لن تبور.. تلك محاسن، وهذه فضائل.

تلك فخاخ يصاد بها حطام الدنيا، أو تسحر أعين الناس.

وهذه وسائل ينال بها رضاء الله، وتُبتغى المثوبة عنده..

تلك محاسن نزل بنا إيماننا بها إلى الحضيض، فكانت شارة ضعفنا.

وهذه فضائل أقامت مبدأ سامياً فتح القلوب والنفوس قبل أن يفتتح المدن والممالك، فما يعجزها والله أن تنهض بهذه الأمة المعروفة التي قعد بها ضعفها وقعدت بها محاسن ومعائب بنيها..

فلنلتمسها، ولنمهد المجال لظهورها.. فهي أمل النجاة، وسبب النهوض وسبيل القوة والظفر.

إن كل فضيلة من فضائل القرآن تضرب المثل الأعلى الكامل للقوة وحريتها فآمنوا بها واطلبوها.

وكل فضيلة من فضائلنا تضرب مثلاً للضعف والتهافت والتمويه، فأعرضوا عنها، وانبذوها.

وليكن الكريم الوهاب محسناً أنوفاً يأبى أن يأخذ بما يعطي شيئاً.

وليكن محسناً بصيراً.. يفرق بين الحسنة الواجبة، والمحمدة الزائفة..

وليكن الشجاع مجاهداً حراً، يغضب للحق، كما يغضب لنفسه، وليكن الصادق أميناً، يقول كلمته في القانون، قبل أن يقولها في المجرم.

وليكن المتواضع صادقاً لا طامعاً.

والصابر مختاراً لا مكرهاً..

والإيثاري زاهداً، لا تاجراً..

* * *

وبعد فهذه حقيقة الفضائل كما تعرفها القوة، لا كما يعرفها الاصطلاح، وما على كل فاضل إلا أن ينزع من فضائله نصيب نفسه الترابي فيها، فإذا هي فضائل القرآن التي تصنع للأفراد الصحائف الذهبية في التاريخ.. والتي تبني الأمم..

ولعل معترضاً يقول: أفلا يقتضي هذا التحول المطلوب، أن تصاغ الحياة صياغة جديدة تنتزع من النفس الإنسانية، أنانيتها، وطبائعها، وتبدل غرائزها وميولها الراسخة؟

ونجيب بأن أصحاب هذه الفضائل، كانوا من أوسع الناس أنانية، وأبعدهم طمعاً وأعمقهم خيالاً.. فما يضحي الفرد منهم بنفسه في سبيل مبدئه إلا وهو يعتقد أن الموت ختام الحياة الذي لا مفر من لقيانه، وأن خلود هذا المبدأ وانتصاره إنما هو خلود نفسه فيه.

وما يخرج من سلطان المادة، إلا وللدنيا عنده معنى من الجمال والحرية – ما تمتع به النفس إلا إن لقيته بأكبر منه، من داخل نفسها وذات سرائرها.

وما يكبح نفسه عما يشينه في أدل صورها على حب الذات والذهاب بها في أبعد مذاهب الغلبة والسيطرة.

فهذه الفضائل ترمي إلى توسيع مدى القوة والأنانية وطبائع النفس، فتكبر فيها الحياة وتمتد حتى تكون مثلاً أعلى ما تقنع النفس دونه بشيء، ويصغر كل ما في الحياة مما دون هذا المثل، حتى تكون خَطْرَة من خطرات النفس الأناني، الأناني أغلى من ذلك الكل الذي تنزل عنه راضية لمن كانوا دونها أنانية وطمعاً.

وخليق بنا أن نرى الأمل في مثل هذه الفضائل ضرباً من الخيال، لولا أن معارض الحياة اليوم غنية بالشواهد عليها، في أمم لا تعرف أن وراء حدود الحياة الظاهرة، حياة ينتهي إليها الجهاد، وتستقر فيها الموازين، فكيف بمن يرون الحياة الأولى سبيلهم إلى الحياة الكاملة الصحيحة، ومجال سباقهم الذي يعرضون فيه قواهم وأعمالهم للفوز أو للخسران؟

* * *

نحن بسبيل الحديث عن الفضائل، ولسنا بسبيل حصرها، وما نظنها من الخفاء بحيث يكون حصرها ضرورة لازمة..

وللفضائل في رأينا جماع هو الحياء.. والرحمة.. والعدالة.. وقوام هذا الجماع الحياء.. فالحياء قوة النفس، وحرية العقل، وميزان الضمير.

والرحمة عدالة النفس، وجمالها، وحسها.

والعدالة رحمة العقل وبصره وسلطانه.

وسنسهب في تحليل الحياء الذي هو قوام الفضائل، أو قوام جماعها إسهاباً نحرص ألا يقودنا إلى التماس العلاقة بين كل فضيلة من الفضائل وبينه حسبنا أن نجمل الإشارة إلى هذه العلاقة فنقول إن كل صفة فاضلة مردها إحدى ثلاث صفات من جماع الفضائل أولاً، ومردها الحياء أخيراً.

والصلة، هنا ليست صلة الجزء بكله، لكنها صلة الفكر المحس، والوجدان الشاعر، والضمير المبصر، ولقد أقول إن الرحمة جمال، فيأخذ السامع بغرابة هذا القول، لأنه عرف الرحمة معنى، أو شعوراً وعرف الجمال صورة، ولكنه متى عرف أن الصورة للجمال رمز لما وراءه من معانيه وخطراته، وأن الألفاظ إشارات مجملة إلى معان تنزل منزلة اللحم والدم ممن تجول المعاني وراء نفسه، أدرك أن جمال الرحمة هو الجمال في جملته وحقيقة معناه.

المعروف أن الحياء صفة طبعية مظهره الترفع الأدبي المتطرف عن الاستجابة لرغائب النفس، إذا شعرت بأن في هذه الاستجابة ما يشينها، ولو كان مباحاً يأتيه الناس.

والمعروف أيضاً أنها دلالة الحس المرهف، ووضوح الشعور بالنقص، أو ضعف الجهاز العصبي، هذا أو ما يقرب منه في الطب.

* * *

لا توجد بين الفضائل فضيلة، أو بين المزايا مزية، تعرضت لما تعرض له الحياء من الامتحان بسوء النظرة وقصرها، وبالتقدير المختل، والوزن الجزاف. أقصى ما يبلغه من التقدير، أن يدعي شعوراً بالنقص، أو فرقاً من الشماتة والتقصير، في الرجل. وأن يعتبر ضابط العفة، وصمام الأمن في أخلاق المرأة، ودوافعها الطبيعية، حتى بلغ سوء النظرة إليه أن يعتبره بعض الأساتذة المعدودين من المفكرين في مصر كمالاً للأنثى، وعيباً للرجال. وأول ما ينزل إليه، أن يعد دليلاً على ضعف الجهاز العصبي. أما آخر ما ينزل إليه، فأن يعتبر أول خطوات البله والعته، وفتور الحيوية حتى يختلط بالجبن والخور،

وقصر الفكر، وفقدان الثقة بالنفس. يتلقى بعضنا عن بعض هذه النظرة الفاشية في مجال الحياء، ونظرة أخرى مبهمة في مجال النشأة الأولى.

* * *

هذا صغير يلتهم الطعام في شره -استحِ

يصرخ من شيء يؤلمه -أو يبكي -استحِ

يتكشف عما يجب عندنا ستره -استحِ

يقلب الأثاث أو يكسر شيئاً -استحِ

يربت على ظهر كلب -استح

هذا في البيت.

في الزقاق:

يضرب الكلب -استح

يضرب رفيقه -استح

يغتصب شيئاً منه -استح.

في الكُتّاب في المدرسة:

يبتسم -استح

تفلت منه ضحكة أو حركة شاذة -استح

يضاحك زميله الكبير أو الصغير -استح

يقصّر في دروسه أو يغيظ الأستاذ -استح

يكذب أو يسب -استح

الصغير يريد بغريزته أن يشعر بوجوده، وبأهميته، ويحب الحركة لأنه ميال بفطرته إلى الحرية، وإلى الشعور بها.

يتناول كل شيء بعينه، فيحب أن يتناوله بيده، وأن يعرفه، وأن يختبره.. الكرسي، الصورة، الصحن، النار، القط.

يقلب الكرسي، يجذب الصورة، يكسر الصحن، يلمس النار، يجر ذيل القط، يخنقه.

هو معتاد ألّا يشعر بنفسه إلا بهذه الحركات. ومعتاد ألا يثير الاهتمام به، فيمن حوله إلا بهذه الوسيلة.

إذا هدأ وسكن، لم يلتفت إليه أحد، فلا يكون أكثر من قطعة أثاث تأخذ حيزها المحدود في الغرفة.

إذا بكى أو صرخ، أو تحرك، اهتم به الناس.

ينشأ معه هذا الميل إذا كبر قليلاً، فيقابل بزواجر القانون المختزل في كلمة واحدة يندر أن تتغير (استح) في البيت، في الزقاق، في الكتّاب.

إذاً اللعب، الحركة، البكاء، الضحك، التقصير في الدروس عيب ينافي الحياء.

هذه عقدة عصبية.

عندما يشب.. يرى سمر الكبار، وحديثهم، ومزاحهم، وحريتهم، فيميل إلى المشاركة فيه بحذر وانكماش. (يجلس في طرف المجلس).. زجر.. نظرات قاسية.. استحِ.

يغني وحده، كما يسمع الكبار يفعلون -استحِ.

إذاً التشبه بالكبار حرية محرمة.. تسع الكبار، ولا تسع الصغار.

هذا هو الحياء؟

إنه غير عادل، وغير جميل، لا منطق فيه.
هذه عقدة عصبية.

يظلمه الكبير، أخوه، أخته، أستاذه، زميله.

يشتكي – يبكي – يعلن غيظه – يتحدث صادقاً منفعلاً.

كذاب – أكبر منك – استحِ.

إذاً الصغير عندما يقول الصدق، يكون كاذباً!

وإذاً الظلم من الكبير (القوي) لا ينافي الحياء.

يشعر بالمرارة، يتعلم الحقد، يتحسر على الحرية، يكره حكم الكبار (العدالة) ويسأل نفسه لماذا لا يستحي الكبار عندما يضحكون، ويغنون ويمرحون، ولماذا لا يصدقونه، ولماذا يظلمونه؟

لا جواب:

هناك إنهم أكبر منه (أقوى).

إذاً لا يجب أن يستحي إلا الصغير (الضعيف).

الحياء قانون، ولكنه مفروض عليه وحده.

الحق للكبير دائماً، لأنه قوي، وليس للصغير.. لأنه ضعيف.

الصغير لا حق له.

الحرية -الجمال -الغناء -الضحك -الحق -للكبار دائماً لأنهم أقوياء.

عقدة عصبية..

كنا نقول إن الشعور بالمؤثرات، والمفارقات، في حياة الإنسان القديم، لا يقتضي التسمية.. كذلك هو في حياة الصغير.. معنى وشعور وإدراك.

يكبر، وتكبر هذه العقد العصبية في دمه ونفسه.. كما تكبر عقد عصبية أخرى لها خطورتها على أعصابه، وعلى مستقبله الفكري والنفسي. نشأ عن الكبت وسوء التربية.. وانحطاط البيئة، واختزان مؤثراتها.

وقد تضيع هذه العقد من ذاكرته، ولكنها تبقى في واعيته الخفية، قوة لا شعورية مستورة، ولكنها موجودة تعمل في نفسه وأعصابه، عملها المخيف الهادىء.

في المدرسة..

يتعلم أن الصدق والشجاعة، والكرم، والعفو، والعفة، والرحمة، والصبر، والحلم، وطائفة كبرى من أمثال هذه السجايا.. فضائل واجبة.. وتضرب له الأمثلة، في كتب الدين والأخلاق، والتاريخ، والإنشاء والمطالعة، على هذه الفضائل، وعلى الخير والبر والتقوى.

إن كان ذكياً رأى أستاذه يكذب، ورأى أمه تكذب على أبيه، وأباه يكذب على أمه، ورأى أنه لا ينجو من العقاب المدرسي إلا بالكذب.. ورأى الأستاذ يخاف، ورآه بخيلاً، ورآه لا يرحم، ورآه ضيق الصدر، ورآه عفيفاً في الظاهر فقط..

التلاميذ يعرفون أسرار أساتذتهم ويكتشفون هناتهم ونقائصهم أكثر مما يعرفها الرجال.

وإن كان ساذجاً انفعلت نفسه وأفكاره بما يتلقى.. فأخذ نفسه ببعض الفضائل أخذاً، حتى يرى نفسه شيئاً شاذاً لا ينطبق على ما حوله.

يتطلعان إلى الحياة، الأول في ذكاء وخبث، والثاني في خجل، وحيرة، وتردد وانكسار.

وينشط كلاهما بالتدريج، ولكن نشاطاً حيوانياً خطراً.

الكبار يتمتعون بحريتهم، وأفكارهم، وألسنتهم الطليقة، الشاب يقلدهم.

تتكشف له الحياة عما يمارسون.. يراهم يقولون شيئاً.. ويفعلون ضده.. يستحون في الظاهر، ولا يستحون في الباطن، يخافون القانون.. ولا يخافون ضمائرهم، وقوانينهم الأدبية (الفضائل).

هذه عقدة عصبية..

يرى خطيباً يخطب ويتلعثم.

يقول في نفسه، هو لا يحسن الخطابة.

يسمع الناس يقولون.. يستحي!

يدخل إلى مجلس غاص فيرتعد، يعرق. يبتسم الناس، ويسألون لماذا تستحي؟ يسمعهم يقولون: فلان يستحي كالنساء.

يرى الذين لا يستحون يتصدرون المجالس، والذين يتوقحون، يسيطرون عليها ولو سيطرة ظاهرة، ويضحك الناس لهم تشجيعاً.

إذاً فالحياء ضعف، كلما قل تأثيره في النفس، كان الإنسان قوياً..

هذه عقدة عصبية خطرة.

* * *

في كل ما سقناه من كلام على الحياء اضطراب واضح، فينبغي أن نستخلص حقيقة النظرة العامة إليه.

كان معنى الحياء في تربية البيت الأولى، وفي تربية الزقاق والمدرسة، أنه قوة تحاول أن تجعل الإنسان متسقاً، مؤدباً، فلا يلتهم الطعام، ولا يصرخ من الألم، ولا يسب نِدَّه أو يعابثه، ولا يضرب الكلب لأنه ضعيف. ولا يغتصب شيئاً ليس له، ولا يذهب بحريته مذهباً يزعج غيره، ومعناه أن يكبح نفسه، ويضبط قيادها، ويتعالى بها عن مواطن الرِّيب والظِنّة.

ألّا يقصر في الدرس، ألا يكذب، أو يثير الأستاذ، وأن يؤمن بالفضائل.

معنى الحياء إذاً تربية وقانون..

وهو قانون معقول، ولكنه فقد العدالة، ولم يوزعها بين الكبار والصغار، فأصبح مراً..

الإنسان القديم كان يقارن ويستنتج.

فالإنسان الجديد أكثر مقارنة، وأدق استنتاجاً.. لذلك تكون عقدة العصبية أشد خطورة.

* * *

عندما ينتهي البيت من مهمته، والزقاق من مهمته، وانتهت المدرسة من مهمتها.. صارت القيادة للتربية الاجتماعية.. للقدوة.. للممثلة.. للحوادث.. للواقع المخيف.. للعقد العصبية.

في الواقع المخيف.. كان الحياء صفة، لا تشرف صاحبها، وصفة يجب الاستغناء عنها لمن يريد أن يكون قوياً، يتمتع بمزايا حريته، ويتمتع بإعجاب الناس وتقديرهم، وكان صفة تؤخر.. ولا تقدم.

يتوقح الشاب لأن الناس يتوقحون.. ولأن الوقاحة فيما رأى وسمع واستنتج قوة، يأخذ في هذا السبيل.. ينشأ لا يعرف الرحمة بالناس. لأن الناس لا يعرفون الرحمة به، ولأنه لم يعرف الرحمة بنفسه.

وينشأ لا يعرف الجمال والاتساق والاعتدال والتوازن.. لأنه لم يكن حراً.. وينشأ منكراً للعدالة، لأنه عرف أن الحق للقوة، ولأنه كان في كل أدواره مهضوماً..

ويكون أخيراً بلا ضمير..

الفرد مرآة الأمة.. تنعكس عليها الصور العامة لها.

والأمة مرآة الفرد في أول نشأته.. وهي مثاله الذي ينشأ عليه.

إذا رأى شجاعة نشأ شجاعاً.

إذا رأى قوة نشأ قوياً.

إذا رأى فضيلة نشأ فاضلاً.

إذا رأى رحمة وصدقاً وعدالة واتساقاً، نشأ رحيماً صادقاً عادلاً متسقاً.

لكنه إذا رأى في هذه الأمة.. غير ما قرأ في المدرسة.. لم يكفه أن يكون كأخيه العامي المغلق، إنما ينقلب مجرماً خطراً سيأتيكم الحديث عنه.

يرى الفضائل تجارة وخداعاً، وزواجر ليست لها قوة القوانين المسلحة، فيتاجر، ويخدع، ولا يخاف إلا القانون..

المجرم أيضاً هكذا – لا يخاف إلا القانون!

القوانين لا تربي الأمم.. ولا تربي الأخلاق.. ولا تبني الحياة.

المدارس تعلم الأخلاق.. ولكنها لا تصنع رجالاً فضلاء.

العقوبات ترد الناس عن الرذائل والنقائص ظاهراً، ولكنها لا تردُّهم عنها باطناً، فهي لا تربي الأخلاق، ولا تبني الحياة.

إنما تربيها وتبنيها تربية البيت الأول، وتربية الزقاق الأولى، إذا استحالتا إلى مشاعر وعقد عصبية.. وإنما تربيها المدرسة بالقدوة الصحيحة لا الفاسدة وتربيها الحياة الاجتماعية بصداها الفاضل.

وتربية البيت مثله الصحيحة وحريته الفاضلة، لا زواجره.

وتربية الزقاق، أن يكون زقاقاً فاضلاً.

وتربية المدرسة، أن تكون عملاً وإدراكاً وممارسة، لا آلية فكرية، وقواعد وترديداً..

وتربية الحياة الاجتماعية، أن تكون أفعالاً صالحة تطابق الأقوال.

هذه كلمتنا في الحياء.. كما يعرفه الناشئ تدريجاً.

وهذه كلمتنا في الحياء.. كما يفهمه الناس.. والأطباء..

الناشئ معذور في مجافاة الحياء.. لأنه الضعف، ولأنه الشذوذ الذي عرفته عقده.

والناس معذورون في مجافاته لأنهم لا يعرفون عنه إلا ما عرفته عقدهم العصبية، وإلا ما تعرفه حياتهم العامة.. وسبيلها العوجاء.

والطب معذور لأنه يرى الحياء مظهر ضعف، باطن أو ظاهر في الجسم..

وهكذا تتضافر على هدم هذه الفضيلة التي قادت الإنسان الأول، فطرته إليها، في معنى من معانيها وهو الرحمة.

وهكذا يفقد الميزان الذي هو جماع الفضائل الصحيحة، أولى كفتيه، فيصير الحياء ضعفاً.. وهو القوة..

وهكذا تفقد الفضائل قوامها.

فهل هذه حقيقة الحياء؟

كلا !فالحياء قوة.. وقوة حرة في أروع المظاهر.. قوة فيها الرحمة التي هي الجمال.. وفيها العدالة التي هي الحق.
أنا إنسان مهذب ذكي، لبق، واسع الإدراك والخيال!

هل يكون نصيبي من الشهوات نصيب الرجل العاري من هذه الصفات؟ كلا!

أنا أحب فأجعل من هذا الحب دنيا تطيف بها ملايين المعاني والألوان والشهوات.. والأهواء..

وهو يحب حباً جنسياً محدوداً..

أنا أتمنى ألوف الأماني، وأحمل ألوف الأطماع، وتجول في رأسي غرائب الأحلام.

وهو يتمنى أن يأكل، وأن ينتهج أضيق سبل الحياة (فكراً وجسداً) هذه سعادته لأنه لا يعرف كثيراً ولا يشعر – الضروري عنده كل شيء..

أنا أعرف كيف أؤثر، وأخدع، وأمثل، وأصل إلى أغراضي من السبل الآمنة، ومن السبل الخفية، التي لا تثير الشبهة.. وأعرف كيف أبتسم لمن أبغضه بسمة الحب العميق، والصديق الخالص، لأضربه الضربة القاضية..

وهو لا يعرف من هذا شيئاً، وإن عرف ففي أضيق الحدود وأبسطها، وأوضحها للعيان.

جرائم المتعلم الحاذق إذاً، أروع من جرائم الجاهل الساذج.

كان الناس يتحاربون بالسيوف والأجساد، صاروا يتحاربون بالغازات الخانقة تزهق الأرواح بلا عناء ويتحاربون بما يشبه السحر.

كانوا يتحاربون على سطح الأرض، صاروا يتحاربون في أعماق البحار، وفي أجواء الفضاء.

كانوا يفتتحون المدن بالقوة، صاروا يفتتحونها، ويفتتحون النفوس، والأفكار بتسميم عقائدها (بالدعاية).

كانت الحرب حرب أجساد، صارت حرب أعصاب، وعقول، وأفكار.

ليس هذا هو الفارق بين الأمس واليوم.

إنما هو الفارق بين إنسان الأمس، وإنسان اليوم.

والناس في الأمس لم يكونوا سواء.. وهم اليوم ليسوا سواء..

أنا ذكي. أنت فطري.

أنا ذكي وعاقل. أنت ذكي فقط.

أنا ذكي وعاقل وعالم. أنت ذكي وعاقل فقط.

وهكذا!

تقدم الذكاء، والعقل والعلم.. هزم القوانين المسلحة وهزأ بها، لأنه أقوى منها.

المحاكم غاصة بقضايا الجرائم. السجون غاصة بالسجناء. دوائر الشرطة تتصبب عرقاً في علاج الحوادث وتتبعها وضبطها.

هذه حرب طاحنة بين القوانين المسلحة، والجمعية البشرية! ولكن ما حصادها؟..
حصادها الضعيف الأقل ذكاء. الأقل علماً..

لا نرى في السجون الأذكياء، ولا العقلاء، ولا الفضلاء.. ولا العلماء ولا الوجهاء. ولا الأغنياء.

بل نرى الفقراء والضعفاء.. والأغبياء.. والجهلاء – دائماً. هذه نظرة غريبة – أيها السادة – (قد تضحككم -وهذا يسرني).

ولعلكم جميعاً تودون أن تقولوا في استنكار عنيف، هذا طبيعي معقول، فما تمتلىء السجون بعلية الناس، بل بسفلتهم.

نعم، هذا طبيعي ومعقول! ولكني لست مخطئاً.

النسيان ليس عيباً، فما يعيبكم أن تنسوا.

نسيتم أن المهذب، الذكي، اللبق، واسع الإدراك، والخيال، الذي مثلت له بنفسي.. هو مجرم أيضاً، بل هو المجرم الخطر.. لأنه أذكى، وأوسع إدراكاً وخيالاً، وأبعد مطالب ومطامع، وأحدَّ شهوات.. هو المجرم الخطر.. ولكنه قوي.. أقوى من المجرم الذي يضرب رجلاً بسكين لنزاع بسيط يقوم بينهما.. ومن المجرم الذي يأكل ويعيش. أقوى من المجرم الذي يسكر ويترنح في الطريق على أعين الناس، وعين القانون ومن المجرم الذي يزني، ولا يحذق فن التستر، فيقع!

المجرم الضعيف الفقير، الأقل ذكاء وحذقاً، يقتنصه القانون بسهولة أو بصعوبة.

والمجرم الذكي القوي الذي يعرف كيف يضلل القانون، ولا يقتنصه القانون – هذه هي الحقيقة عارية مجردة!

وأظن أن الفكرة وضحت قليلاً الآن..

إن متاعب الإنسانية بأعباء الرذائل والجريمة، ليست هي المتاعب التي يسببها المجرم الساذج الغبي الذي يقتنصه القانون بسهولة أو بصعوبة، بل هي المتاعب التي يسببها المجرم الذكي المهذب اللبق، واسع الإدراك والخيال، الذي سمّيته أنا..

والذي لا يقتنصه القانون إلا نادراً جداً، لأنه، لا يترك وراءه أثراً.. هو عقدة العقد، وسبب متاعب الأمة التي يكون بينها، وسبب انهيار الأخلاق فيها:

بل هو الذي لا تقوم للأخلاق قائمة إلا إذا اقتنص! هو الذي يتصدر المجالس، ويقود الأفكار، ويسحر العيون، ويخدر النفوس.. وينفق المال سخياً، ويشترك في الأندية والجمعيات، ويساهم في وضع القوانين، ويكتب في الصحف، وينظم الشعر، ويعظ ويتولى تربية الناشئين، ولا يترك وراءه دائماً إلا آثار الجد والرصانة والسلوك الموزون، والسمعة الطيبة.

معنى هذا أن السجون ستمتلىء، وأن الناس كلهم إلا السذج البلهاء مجرمون هكذا تقولون في نفوسكم!

أما أنا فأقول كلا، وستقولونها بعدي!

معنى هذا أن القوانين لا تربي الأخلاق، ولا تبني الأمة.. ولا تقتنص المجرم الخطر. إنما يربيها ويبنيها، ويقتنص مجرمها الخطر، الحياء، لأنه أقوى أو لأنه القوة..
الحياء الذي جهلناه، وأضعنا أثره، فحسبناه ضعفاً نتنكر له، وننتزعه انتزاعاً من دماء أبنائنا وناشئتنا، وهو قانون الفطرة الإنسانية، وقانون قوتها المطلقة.
الحياء الذي هو القوّة والرحمة والعدالة.
اعرفوه وأصيخوا لندائه، فهو الذي يبني الحياة الفاضلة لأنه قانون ديننا.. وقانون إنسانيتنا.

هو موجود في دمائنا.. هو العقدة العصبية القوية التي ما تهزمها العقد العصبية إلا إذا تحولت إلى مسلك عام.. تؤازره الحياة الظاهرة، والحياة المستورة.

يرى المجرم الخطر الذي سميته (أنا) تاجراً ساذجاً، أو رجلاً غبياً، يمكن أن يفترسه، ويختلس ماله على عين القانون، فيستحي برده ضميره الذي هو الحياء..

يرى السرقة سهلة ميسورة من سبيل الربا الذي لا يعاقب عليه القانون إذا كان في ظاهره اتفاقاً تجارياً، أو قرضاً إحسانياً، يسجله القانون نفسه.. فيستحي.

تنازعه نفسه ألّا يصوم، لا يصلي، وفي وسعه أن يفعل، لأنه يعرف كيف يتستر ويخدع الناس بالصلاة أمامهم وبالتحدث عن إيمانه، فيستحي.

يستحي أن يكون إيمانه بالناس، أكثر من إيمانه بمعبوده، وبفرائض دينه.

يرى الضعيف الجائع لا يفرض له القانون على الناس شيئاً، ولكن يفرض عليه ألا يسرق، ألا تمتد يده إلى أردية الناس، فيتألم ويستحي.

يرى أنه يتمتع بمنصب مرموق، يكون فيه وسيلة لاستغلال الضعفاء، والعبث بحقوقهم، فيستحي ويتنحى.

يرى العامي الذي لا يعرف شيئاً في الحياة إلا سبيل طعامه، يراه إنساناً قديماً آبداً لا يحسن الكلام، ولا يحسن الفهم ولا يحذق الأساليب المهذبة، فيقول هذا ليس ذنبه، ويستحي.

يرى الشاب الناشىء الضعيف. يتعلق بأسباب العيش فتخذله، ولا من يأخذه بيده فيستحي ويرق.

يرى الغلام الهزيل، تكدح عليه أمه الفانية، أو يكدح عليه أبوه المضعوف. يراه يذهب هدراً، فيتذكر ولده المتعلم المتنعم المترف، فيستحي ويعطف.

يرى المرأة العجوز، والرجل الهرم، أقعدهما كلال السن، والحاجة. يراهما يدبان على الأرض يتلمسان العون من أبنائهما.. فيستحي.

يرى الفتاة تدفعها الحاجة القاسية دفعاً إلى حيث تساوم على قوتها بعفافها فيتذكر ابنته، أو أخته، فيستحي..

يرى اليتيم الذي يعيش بين إخوانه الآدميين، وكأنه ليس منهم، فيستحي.

يرى المرأة الغريرة يستطيع أن يضع لها حبائل الشيطان في حبائله. يراها مأخوذة به، وما بينها وبينه، إلا أن يقبل عليها بعينه، فيستحي. يرى هذه القروح الدامية في وجه أمته، فيحسها قروحاً دامية في ضميره، وقروحاً دامية في نفسه، وقروحاً دامية في عقله، فيستحي. ألا يكون رجلاً يقوده ضميره، وتقوده نفسه، ويقوده عقله إلى العمل والبر والإحسان، صامتاً.

يرى أن أمته لا تكون أمة، ما دام جسدها العام يسيل بالقروح الدامية فيستحي ألاّ يعمل شيئاً.

ويراها نكرة بين الأمم يعصف بها الضعف والجهل، وما هو شر من الضعف والجهل، فتثور به نفسه تطلب لها العلم والقوة والعلو والتمكين.. ويستحي.

يرى أن ثروته ليست من صنع يده، بل من صنع الله الذي أعانه وجعله عضواً حياً في جسم أمته، ويراها من صنع هذه الأمة، ومن صميم متاعب أبنائها وكدحهم، ومن صميم حياتهم الجاهدة، ويرى أنه حجر في هذا البنيان الذي لا يكون قائماً إلا بأن يشد بعضه بعضاً فيستحي أن يقول "ثروتي -حقي" ويستحي ألا يفعل شيئاً للأمة التي كونته وكونت حقه.

يستحي أن يكون التراب أعدل وأرحم منه.

يستحي أن يكون التراب رحيماً يريح الفقير، والجائع ويضم العاري والمنكوب والضعيف، وعادلاً يساوي بين عيال الله فقيرهم وغنيهم، وضعيفهم وقويهم. ألا يكون هو رحيماً عادلاً.

يستحي أن يرى المرأة، أو يرى الرجل، يغالب كلاهما الحاجة، ويتعفف، ويتحمل الصبر، فلا تبضُّ له بقطرة حتى يقول، أو حتى يسأل، أو حتى يشكو أو حتى يصرخ، أو حتى يسقط إعياء.. يستحي ألا يسمع ضميره إلا الأهوال وألا يرى قلبه إلا الدم.

هذا هو القانون الذي يقتنص المجرم الخطر.. ويجعله رجلاً.. وفاضلاً..

وهو القانون الذي يقفل السجون، ويخفف عن الأمة أعباءها، ويطلق سراح الأغنياء، والجهلاء، والضعفاء، والفقراء (المجرمين المساكين الذين يقتنصهم القانون بسهولة).

هذا هو الحياء.. الذي هو القوة.

افتحوا عليكم بصائركم، تفتحوها على القوة التي هي من قوة الله.. من قوة شريعته.. ومن قوة فطرته.

ومن قوة الأنانية الفاضلة، ومن قوة الضمير الذي هو النفس اللوّامة، التي أقسم الله بها في كتابه..!

هذا هو الحياء الذي تنطوي فيه الرحمة، وتنطوي فيه العدالة..

هذه هي القوة التي لم تكن رسالة الدين الإسلامي إلا محاولة، حكيمة جادة لتربيتها في نفوس المسلمين.

أرادتها تربية، ولم تردها فرضاً.

كانت في حياة محمد صلى الله عليه وسلم، تضحية صادقة إلى آخر حدود طاقة النفس الإنسانية واحتمالها.

كانت حياء يدفع الناس ألا ينهزموا في مواطن الجهاد.. أمام الكثرة، وأمام الموت المحقق.

كانت حياء لا يترك، الغني يأكل، حتى يشبع الضعيف.

وكانت مثلاً أعلى. تضر به قطعة من لحم، كما تضر به قافلة ضخمة يجلبها عثمان للتجارة، فينفقها للحياء..

قطعة من لحم تطوف على بيوت الأنصار والمهاجرين مطافها الطويل حتى تعود إلى مهدها الأول.. وكانت مثلاً تضر به شربة ماء يدفعها جريح يعالج سكرات الموت، يستحي أن يشرب وهو يسمع أنين أخيه الجريح فيقول حياؤه، ربما كان أحوج إليها مني، فتدور فيدفعها جريح إلى جريح حتى تعود إلى دافعها فإذا هو قد مات.. وإذا هم قد ماتوا..

هذا ما أراده القرآن.. فكان.. وما يريد القرآن مستحيلاً.. إنما يريد الممكن. وهذا هو الحياء الذي تنطوي فيه الرحمة بجمالها المطلق؛ وتنطوي فيه العدالة بحقها المطلق، لأنه القوة المطلقة.

القانون الذي تحول في دمائنا إلى زواجر لا شعورية، وإلى مشاعر مغلفة، وإلى عقد عصبية سامية، مات مفهومها، وبقيت قوة لكنها غامضة مبهمة، وقانوناً لكنه أعمى، ومبدأ لكنه منكور!.

تجري به كلمة "استح" غامضة مبهمة، متحيرة، ضالة، لا تعرف سبيلها القويم تارة تصيبه وتارات تخطئه. في البيت، في الزقاق، في المدرسة، وعلى لسان الأب والأم، والأخ والأخت، والرفيق، والأستاذ، والرجل العابر!

وعلى لسان البنت الخفرة التي ما تحس عرفاً ولا نكراً، تقولها بدمها الطافر إلى وجهها المحتقن، حمرة قانية تفاجىء طبيعتها، بشيء تنكره طبيعتها -استحي.

ألا ما أحبها كلمة، ولو كانت غريبة بيننا، ولو كانت مجهولة، ولو كانت مجفوة، ولو كانت بلا مدلول.. أو كان مدلولها حائراً ما يهتدي..

هي بقية تراثنا، وقوّتنا، الذي ما فقدناه في دمائنا بعد أن فقدنا كل شيء.

ذخيرتنا فاعرفوها.. اعرفوها.. ولو لم تعملوا بها.. ورددوها..

فالمعرفة أساس الإيمان..

والتكرار وسيلة الإقناع..

اجعلوها في البيت قوة تعرف سبيلها.

وفي المدرسة معرفة لا زجراً.

وفي الحياة مبدأ وعقيدة وسلاحاً.. لا لعبة..

أيها الخطيب الذي يضلل الضمائر، ويقول ما لا يعتقد – استح.

أيها المتحدث الذي يخدع أخاه، بما يضمر ضده – استح.

أيها البائع الذي يروج سلعته، بالزيف والتمويه – استح.

أيها الكاتب الذي يئد الحق والجمال والقوة ليظهر -استح.

أيها الشاعر الذي يصنع الكذب والباطل والملق في شعره، فيسجل به عاراً على أمته – استح.

أيها الفاضل الذي يتاجر بفضيلته.. ليقيد بها مالاً وسمعة وجاهاً – استح.

أيها الكريم الذي يقيم المآدب، ينفق عليها المئات، في مآتم أمته – استح.

أيها المتعلم الذي يحتقر الأمي والعامي. ليس هذا ذنبهما – فاستح.

أيها المتكبر الذي يتنكر للضعف والفقر، ويبصبص للقوة والنفوذ – استح.

أيها الشاب الذي يمتهن الشيوخ.. كان الإنسان القديم يحترمهم – فاستح.

أيها الطبيب الذي يعرف لغة المال والجاه، ولا يعرف لغة الحياء والضمير – استح.

أيها الوطني الكاذب الذي يتنكب سبل الجهاد، ويروغ من التضحية الصادقة، فيجعلها فلسفة تتعلق بالممكن، وغير الممكن – استحِ.

أيها الوطني الصادق، إن أعجزك الجهاد لأنك ضعيف، أو لأنك فقير، فجهادك أن تأخذ بيد الضعيف تواسيه، وبيد الحائر تهديه، وبيد المصاب تعزيه، وبيد الجاهل تعرفه ما يجهل، وبيد العاثر تنهضه.. وجهادك أن تنفخ في الضمائر حتى تحيا.. فإذا ابتليت بما يبتلى به المجاهد المضعوف، من سخر يلذعك، أو غمزة تجرح كرامة نفسك، فقام في رأسك أن هذا واجب الجميع، لا واجبك وحدك – فاستح.

أيها الرجل الذي لا يرى في المرأة إلا الجسد هي الأم التي تلد الحياء.. والرحمة.. والعدالة.. والأم التي تلد الرجال، لو اصطنعت على ما يهيؤها لهذا – فاستحِ.

أيها الأب الذي يكفيه من حبه لابنه أن يبنيه ليعيش لا ليحيا وأن يبنيه لنفسه ولأسرته، ولا يبنيه للخير ولأمته – استحِ.

أيها الشاب الذي يتطرى ويذوب حتى يفقد رجولته، اللغد نعت الإناث استحِ.

أيها الأديب الذي يظن أن ما وهبه الله من إدراك ويقظة، حقه لا حق الأمة عليه، ولا أمانتها عنده. الأدب نصيبك من الجهاد فاصدع به، وتصبب عرقاً، للأمة التي ما بلغت بك الرشد على ضعفها، حتى تصببت عرقاً، كن لنفسك قليلاً.. ولها كثيراً.. واستحِ.

أيها الرجل الذي يسمم عقائد الناشئين وأفكارهم بأفعاله، وأقواله، هذا عماد قوة الأمة في مستقبلها – فاستحِ.

أيها الوطني. أنت رجل لا ينسى قضية نفسه وأسرته، فلا تنسَ قضية أمتك ووطنك. اشتغل بها في نفسك، حتى تكون عقدة عصبية، يرثها ابنك وبنتك – فإذا كانا صغيرين، ولقيا رجلاً يضحك في مأتم أمته، طفر الدم إلى وجناتهما حمرة قانية، وصرخا به – استحِ.

أيها الوطني: لا تحقد على الضعيف إذا كنت قوياً، ولا تحقد على الضعيف إذا كنت ضعيفاً. هو في الأولى دونك، وفي الثانية ندك.. أنتما قوة فحذار أن تضيع بالانقسام.. كان ابنك الصغير، يضرب الكلب الصغير، فتقول له استحِ.

وكان يضرب نده، فتقول له استحِ.. فاستح أنت من ضعيف يكون دونك، ومن ضعيف يكون مثلك.. واحقد ما استطعت على القوي المتكبر، وعلى القوي الظالم.. احقد حتى تكون قوياً فاضلاً، يأخذ حقه فيعدل، أو يأخذ حقه فيرحم.

أيها الوطني.. المسلمون أمناء بعض.. بنتي وابني أمانة في يدك وبنتك وابنك أمانة في يدي، فافعل بأمانتي ما تريد أن أفعل بأمانتك.

وأيها الوطني الذي ليست له أمانة.. لا تكن مجرماً..

إن كنت عقيماً ففي الأمة يتامى.. فيها بنات يفسدن.. وأولاد يفسدون. يفسدهم الفقر والضعف، وتصلحهم التربية والإحسان. التبني سنة نبيك، فاجعله فرض حياتك..

وإن كنت أعزب، فما أقول لك تزوج، فإني أعرف أن الزواج امتحان عنيف للضمير وللرجولة وللطاقة. امتحان قد لا تستطيع احتماله قوتك.. لأن الناس جعلوه تجارة فما أقول لك تزوج ولكني أقول لك استحِ.

إن كنت مريضاً مرضاً معدياً.. فلا تتزوج، ولا تكن مجرماً.. واستحِ.

إن كنت بحاجة إلى خادم، ولست بحاجة إلى زوجة فاستحِ.

إن كنت لا تعرف في المرأة إلا لغة جسدها، ولغة شهوتك فاستحِ.

إن كنت لا تستطيع أن تعول زوجتك وتربي ولدك، وتؤدي به أمانة أمتك وأمانة وطنك فاستحِ.

أيها الأب.. أيها الأخ.. أيها الوالي!

إن كنت لا تريد لفتاتك إلا الفتى ولو لم يكن رجلاً.. فاستحِ.

إن كنت تبيعها لمن يدفع الثمن الذي تحدده فوراً، ويحقق الشرائط التي تفرضها.. ولو كان مريضاً.. ولو كان طاعناً في السن.. فاستحِ.

إذا تقدم إليك الرجل.. ووقع في نفسك أنه الرجل، فادفعها إليه دفعاً. لا تضع في سبيله عراقيل المهر الضخم، والمآدب الفخمة، والنفقة المسرفة دع ما في يده، يستعن به على حياته، وحياة فتاتك وأعنهما ما استطعت. المهر للتحليل، فلا تجعلوه تهويلاً.. إن الله يكره الإسراف.. ويكره الغلو.. والشيطان هذه فِخاخه.. يصطاد بها بناتنا وأبناءنا..
الزواج ضرورة الحياة.. وفريضة الدين.. فرائض الله، تؤدى على التراب، وينوب فيها شيء عن شيء، ينوب فيها الصعيد عن الماء.. والإيماء عن الأداء.. وتقوم فيها النية الطيبة مقام العمل الصالح..

هذه فرائض الله لا غلو فيها..

فلماذا نجعل الزواج تجارة.. تتم بها الغلبة علينا للشيطان.. أيها الأب، أيها الأخ، أيها الولي، إذا كنت على شيء مما تتم به الغلبة للشيطان.. فاستغفر الله واستحِ..

أيها الوطني الذي تدمع عيناه للعظة لا يدمع لها ضميره – استحِ.

أيها الوطني الذي يدمع للعظة ضميره، ولا يفعل شيئاً.. استحِ.

أيها الوطني الذي لا يفرق بين كلمة الحق يرسلها الضمير ناراً، وكلمة الحق يرسلها اللسان لهواً استحِ.

أيها الوطني الذي يسمع بأذنه، ويرى بعينه، ولا يسمع بضميره، ويرى بجيائه -استحِ.

أيها الوطني إذا هممت أن تؤذي ضعيفاً خرق قانونك، أو قصر.. فاذكر من يعول.. واذكر أن الفقر يعلم الناس العثار.. استحِ!

أيتها المدْرَسة التي تدفع إلى الحياة شباباً حائراً لا يعرف سبيله في الحياة -استحِ.

أيتها المدرَسة التي تخرج متعلمين، لا مؤمنين، وقوالين، لا فعالين، وتخرج ذكاء، ولا تخرج حياء، وتخرج أجساداً، ولا تخرج رجولة وقوة وطنية – استحِ.

وأيتها الأمة التي لا تبني مدرسة تصنع الرجال الأقوياء يقيمون مجد الوطن – استحِ.

وأيها المتعلم المترفع عن غشيان معترك الحياة، كما يغشاه الأمي والعامي، يعمل كلاهما بنفسه، وبيده، وبجسمه، العمل شرف وقوة ورجولة فاستحِ.

ما نظننا الآن وقد طال بنا الحديث، بحاجة إلى تحليل الرحمة والعدالة.. بعد تحليلنا الحياء الذي هو القوة.

الحياء والرحمة والعدالة، تنطوي معانيها في معانيها فتكون المعنى الأسمى، كما تنطوي أجزاء الجمال في أجزائه، فتكون الجمال.

ونجمل لكم القول في معنى الحياء.. الذي هو القوة.. والذي هو قوام الفضائل..
معنى الحياء في الرجل أنه الرجل الذي لا يقتنصه القانون، ولا تقتنصه القوة ولكن يقتنصه ضميره ويغلبه حياؤه..

ومعناه في المرأة أنها المرأة تهزم الشيطان، وتطرد المجرم الخطر، وتجعل من جسدها حرماً لا يتدنس وفيها حياة.. ما دامت لها طاقة!

فإن كانت جاهلة، أو محتاجة، أو ضعيفة، فذلك ذنب الأمة التي لا يكون فيها رجال – وإن كانت طائشة، بها مس من طبيعة الشيطان فيها، فذلك ذنب الرجل الذي يراها جسداً.. فتنقلب به حيواناً بقرنين.. وبنفسها حيوان لا يستحي.

فليكن الحياء، شعار الضمائر في هذه الأمة، وشعار حياتنا، وشعار الفضائل فيها..

وليكن أساس تربية المنزل والزقاق، والمدرسة والحياة..

عودوا الآن إلى كلمة الأستاذ العقاد "ليس بحي الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة" واجعلوها: ليس رجلاً ذا ضمير، من لا يسمع صوت حيائه دائماً.

قال محمد صلى الله عليه وسلم: الحياء والإيمان مقرونان فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر. وقال: لكل دين خلق. وخلق الإسلام الحياء. وقال: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

خاطبنا الضمائر والنفوس هذا الخطاب الشعري الذي نرجو أن يكون مؤثراً وأن يكون تفصيلاً لنظرتنا إلى الحياء، وعلينا الآن أن نسأل كيف نستفيد من هذه القوة المذخورة في دمائنا، وكيف نجعلها أساساً نبني عليه تربيتنا الفاضلة؟

وهذا في الواقع لبُّ الحديث وخلاصته، والنقطة التي يجب أن تبقى مداراً لجهاد أقلام قوية من أدبائنا وشعرائنا، ومثاراً للتوليد، والقول، والتفكير الدائم.

وقد طال القول، وهذا ما يدفعنا إلى اقتضابه حتى تحين فرصة لدراسات خاصة، تعطي حكم الاستقلال والتفرغ.

لا تحيا أمة إلا بالتربية الصالحة، وما نراه من الفروق بين الأمم الناهضة إنما مردّه تفاوت أساليبها في التربية.

وقد تماثل أمة أمة في قوتها الظاهرة، ولكن الغلبة تكون دائماً لأقواهما خلقاً.

وتفوّق السياسة الإنجليزية ليس مردّه القوة الحربية، ولا امتياز الذكاء والإدراك، ولا قوة النفوذ، وامتداد السلطة وارتفاع ميزان الثروة، لأن هذه النتائج ضمنتها قوة الخلق في الفرد الإنكليزي.

ولقد كانت فرنسا، وما تزال أقوى ذهنية، وأحد شعوراً، ولكن اتجاه المزاج الإفرنسي، كنتيجة لأسلوب التربية الغالب في فرنسا جعل الفرنسي، دون الإنجليزي، في متانة الخلق، وصدق الاتجاه، وقوة العزيمة، وضبط النفس.

والإجماع عام على أن أية نهضة لا تقوم على قوة خلقية في أمة، إنما تكون نهضة مقضياً عليها بالانهيار والتحير..

واتجاه الأمم في إطلاق الحرية لتربية الطفل، واتخاذها سياسة لا تنزل المنزلة الثانية من سياسة الشعب العامة، دليل على صحة هذا القول..

فالطفل في البلاد الناهضة حقاً، يعتبر رجلاً صغيراً بين أهله، يعامل معاملة الرجل، ويعطى مميزاته، ومطالبه، وهو عضو في الأسرة، له محله الخاص، وعلى المائدة موضعه الخاص، وحريته التامة، لا يكتم عنه شئ، ولا يلزم باتباع أساليب وآداب لا يتبعها الكبار أنفسهم.. ولا يقسر على اتباع، ما يعرف أن السير عليه في مستقبله غير ممكن، فإذا قصد الأهل دور السينما، والمتنزهات لم يحرموه هذا الحق، وإذا كانوا يمارسون ألواناً من اللهو البريء، لم يحجروا عليه ممارستها، وإذا كان يلقنونه الرحمة والعدالة والاتساق والأدب، كانوا في كل تصرفاتهم أمامه رحماء عادلين، متسقين، مؤدبين، وإذا أطلقوا لأنفسهم عنان الحرية في شيء لم يمنعوه أن يأتيه.

فالطفل جزء من المجتمع الصغير في بيته، ومن المجتمع الكبير في مدرسته، فهو لا يشعر أنه صغير، أو ضعيف، أو مقيد الحرية أو مهضوم.

وخطؤه فرصة تنتهز للتفاهم معه، والنصيحة له، وإرشاده، لا لزجره وازدرائه وكبته، والتربية في المدارس في أكثر مراحلها، توجيه وليست قيادة وتحتيماً. والمدارس تفرح بالطفل الشاذ، لأنها

تعرف أنه سيكون رجلاً من نمط خاص، فهي تعنى بتهذيب هذا الشذوذ فيه وتوجيهه، ولا تقاومه أو تقسره.

وإذا كان وجود الكبير بين الصغار تقييداً لهم، وحجراً على حريتهم، فإن وجود الطفل بين أهله، حري بأن يكون تقييداً لهم، يحملهم على أن يسلكوا أحسن السلوك وأدقه، مراعاة لما يجب أن تقع عليه عينه من صور الكمال والجمال.

فلو قلنا للطفل عندما يضرب كلباً، استح، وشرحنا له أن الكلب ضعيف لا يستطيع الشكوى، ولا الدفاع عن نفسه، وأنه وديع ولا يؤذي، وتظاهرنا بالحزن والرثاء على هذا الكلب، وأوجبنا على الطفل أن يقدم له ترضية من طعام، واتجهنا هذا الاتجاه في كل ما يشبه هذه الحادثة، لكانت عقدة الطفل العصبية، عقدة نبيلة، تجعله يشعر بالقوة وبقانون حريتها.

نحن نخطىء كثيراً عندما نظن أن الأطفال في سني حياتهم الأولى لا يعرفون، ولا يدركون.

إني أعتقد أن أحسن مبادىء التربية، وأسوأها، لا ترسخ في دم الطفل ووجدانه وعقله الباطن، بقدر ما ترسخ في العشرة الأولى من تاريخ نشأته.

وإذا كنا نعرف خطر تسميم عقل الشاب، بالمعلومات والمبادىء الفاسدة في الخامسة عشرة، أو العشرين من عمره، فيجب أن تكون أكثر تقديراً، لما يسمم دمه، ويكون عقده العصبية في طور مراهقته الفكرية.

والملوك والزعماء، عندما يريدون تنشئة أبنائهم على أخلاق وميول خاصة، يطلقون لهم حرياتهم، ويحيطونهم بما يطبع نفوسهم وأفكارهم على ما يراد إعداده له من حياة وتقاليد.

فالذي يراد له أن يكون كريماً يجعلون له بيتاً، وحاشية تأتمر بأمره وخيولاً مطهمة.. وقصاداً، ومآدب – ويكون هو في أثناء هذه الحياة جاهلاً معانيها كل الجهل، في الظاهر، ولكن دمه ينطبع عليها بالإيحاء والممارسة.

والذين يريدون الخيول على أن تحذق أساليب خاصة من السير والحركة والنشاط الظاهر والفراهة، يأخذونها بأنواع التدريب والتمرين، ويبذلون في هذا من الجهد، ودوام الملاحظة والعناية كثيراً، ويرسخون فيها كلمات، ونداءات خاصة، وإشارات، تتأثر بها مع طول التجربة، وهذا يكون عندهم ضرورياً لضمان هذا المطلب.

ومن الغريب حقاً أن يهمل الطفل، ويكبت، ويعامل كما يعامل حيوان مغلق لا يحس ولا يدرك، فإذا كانت بعض الحيوانات، تستفزها كلمات وإرشادات، عودت على الاستجابة لها، فكيف يهمل الطفل الذي يراد له أن يكون رجلاً مؤدباً قوياً حراً، يضطلع بمسؤوليات بيته، ووطنه في المستقبل؟

إننا نرى صلات الأمهات والآباء في الأمم الراقية، بأبنائهم، صلات ودية عميقة، تشبه أن تكون صداقة وارتباطاً في معظم أدوار النشأة، ونراها عندنا صلات تشملها القسوة والجمود والإهمال والفوضى، على اعتبار أنها تربية وحدود تقتضيها فوارق السن والإدراك، والمقام.

فإذا ترك الطفل لنفسه، شعر بغربته في هذا المحيط، وتعلق بالزقاق أو بالخدم، فنشأ نشأة شاذة مضطربة، تكون شر أساس لحياته المدرسية، فإذا كانت هذه مضطربة شاذة خرج إلى معترك الحياة، حيواناً له مظهر الإنسان..

حدثني صديق كان يتلقى الطيران على يد أستاذ إنجليزي، قال كان الإنجليزي يشرح كيفية استعمال البراشوت (مظلة النجاة) قائلاً:

عندما تفشل في ضبط طيارتك وهي هابطة، تلقي بنفسك في الهواء، وتحل في اتزان، أربطة المظلة، فلا تلبث أن تمتلىء بالهواء، وتقلك، فبادرته سائلاً.. وإذا فشلت المظلة، فأخذ

الإنجليزي بغرابة هذا السؤال، وقال بلا روية، وبلهجة عنيفة.. يستحيل أن تفشل.. إنها مصنوعة في إنجلترا، فهذه عقدة عصبية لهذا الإنجليزي، تعطينا فكرة واضحة عن تشبع نفسه، ودمه، بعظمة مصنوعات إنجلترا، ودقتها، واستحالة احتمال فشلها، في أداء مهماتها، ولو كانت فكرة واضحة لوسعه أن يتصور أن في الدنيا مظلات غير إنجليزية يحتمل أن تفشل.. إذا كان الفشل لمظلات إنجلترا مستحيلاً!

هي نادرة يصح أن تكون دليلاً على جمود طبع الإنجليزي، وضيق مدى فكره، ولكنها استجابة خاطفة، تشير إلى إحكام العقد العصبية الأولى أيضاً..

لا يستحيل أيها السادة أن يعرف الطفل من حياته المنزلية، قوانين العدالة، والرجولة، والحرية، والوطنية، والجمال، والعواطف، والجندية، والموسيقى، والرياضة، والاتساق، والكرم، والشجاعة، والرحمة.. متى عرفنا كيف تستغل قوة الحياء فيه هذه القوة التي نفسد بها حريته، ونبلبل اتجاهاته، ونكبت بها نزعاته المتطلعة، وتقضي على نشاطه المأمول، بدل أن نجعلها قانون القوة فيه، وقانون الحس والشعور والغيرة، وتربية الضمير.

مع أن الإنجليز اليوم يضربون أعلى المثل في نظام تربيتهم المدرسية، فإنهم قليلو الثقة بهذه المدارس، فهم لا يدفعون إليها الطفل إلا بعد أن يطبعوا نفسه بطابع الرجولة، ووثائق الخلق، ويقيموا عليه من ضميره وتقاليده الراسخة في دمه حارساً يقظاً قوياً.

وقد أصبح كل باحث في التربية تقريباً، يعتقد أنه لا شيء يعادل في الأهمية السنين الأولى من حياة الطفل، فهي التي تكون مركز القيادة الوجدانية والجسدية والفكرية فيه، ويعتقد بعض علماء النفس، أن الطفل في نهاية سنته الثانية، يكون قد أتم شكل قالبه المستقبل، فلو توسعنا قليلاً بهذه النظرية إلى حد الرابعة، فما هي طائلة العقاب المعنوي الذي تتعرض له أسرة لا تعرف إلا أن الطفل في الرابعة أشبه بحيوان لا يعي ما حوله؟..

ولم تلتقط هذه الصور الحساسة مما يدور حولها؟ وكم تفعل سيطرة الآباء والأمهات، في القضاء على القوة الطبيعية في الطفل، بهذه الحيرة العمياء لا تعرف سبيلها.

إذا كان الأطباء يعدون من المسائل الكبيرة الخطر في حياة الطفل الجسدية، مسائل التهوية، والبكاء، والغذاء والنوم، والملابس، والأمراض المعدية، فإننا نرى أنها تقل خطراً عن مسائل صحة العقل، والعقد العصبية، والعادات الوجدانية.

إننا نرى أمماً لم يمنعها فقدان النظام الصحي من تكوين حضارتها، ولكننا لا نرى أمة تفقد التربية النفسية والفكرية، بقديرة على أن تقيم حضارة تسلكها في عداد الأحياء الحقيقيين. ومن سوء الحظ أن مدارسنا – على ندرتها – لا تزال تتبع الطرق القائمة على الكبت والقمع، وسوء استغلال قوى الطلبة وتبديدها، إما بسوء أساليب الدراسة، أو بدراسة مطولات تثقل الذاكرة، وتشوش الفكر، أو بتدريس مناهج أجنبية، لم تُبن على طاقة الطالب عندنا، ولم ينظر فيها إلى المقومات الذهنية والنفسية التي يجب أن تكون شخصيتنا الخاصة كأمة مستقلة.

إن العيوب التي تتخبط فيها مدارسنا يرجع معظمها إلى جهل أساتذتها علم التربية، وإلى عدم وجود قيادة خبيرة تبني مطالب التربية وفروضها على دراسة دقيقة عامة لطاقة الفكر والذكاء، ومقوماتها الذهنية، والنفسية، وإن كانت الحركة التعليمية الأخيرة تعد ثورة بالنسبة إلى الماضي.

ولو استقصينا هذه العيوب لما رأينا إزاءها حسنة واحدة.

وحسبنا دليلاً على هذا، أن الدراسة عندنا لا تزال قائمة على حشو الذهن بالمعلومات والقواعد، وعلى إرهاق طاقة الطالب، وكبت نزعاته النفسية والوجدانية..

وها نحن نرى آثار هذه العيوب، في امحاء آثار الشخصية من جميع مَنْ تخرجهم المدارس وفي كلال أذهانهم وأعصابهم، وفتور حيويتهم الفكرية، فلا نكاد نجد أثراً لنشاط الفتوة في نفوس أبنائنا.

فالغلام عندنا مطبوع بطابع الكهل، والشاب مطبوع بطابع الشيخ الهرم.

إننا نرى آثار القمع ظاهرة فيما يلوح على أبنائنا من أعراض الحكمة والفلسفة الخامدة، فالشاب قصير النظر، فاتر الطموح، لا يتطلع إلى غير أن ينال عيشه، ويتجنب ميادين النشاط والحرية والاستقلال.
إن مسألة اختيار الأستاذ والمربي، لم تعد من المسائل الثانوية بالنسبة للتربية العامة، وإذا كانت طبيعة حياتنا قد أفقدتنا الأب والأم الرشيدين، فلا أقل من أن تعوضنا التربية المدرسية أساتذة يقودوننا بحكمة وخبرة، ليعدلوا ما فينا من اعوجاج.

يقول الأستاذ الألماني ليبنتز "سلمني قياد التربية، وأنا ضمين لك أن أغير وجه أوروبا قبل قرن واحد من الزمن."

فمن الخطأ أن تعطى مقادة التربية العامة، لأناس لا همّ لهم إلاّ تلاوة المقررات المطولة والمقررات الجامدة ليعيدها الطالب حفظاً وتسميعاً..

إن سياسة التربية يجب أن تنزل المنزلة الأولى، من حياة الأمة التي يراد لها التقدم، وتبتغي لها الحياة.

عندما أرادت انجلترا تكوين فكرة صحيحة عن المبادئ المثلى للتعليم والتربية، أسندت هذا العمل إلى أكفأ رجالها، من ساسة، وأدباء، ونقاد، وفلاسفة، وعلماء، ورياضيين، وفنانين، وصناع وكانت النتيجة أن يقدم لها القرار في عشرين مجلداً ضخماً..

ففي أي عدد من الأوراق يوضع القرار الذي تستند عليه التربية المدرسية عندنا؟ لهذه الأمة؟ وفي يد أية جماعة توضع دفة التربية العامة لهذه الأمة؟..

أليس من العار أن تكون مدارسنا، معامل تفريخ، كل غايتها أن تدفع عدداً من حملة الشهادات، لا يعرفون فناً تجريبياً، ولا علماً عملياً، ولا صناعات يدوية، تفتح في الحياة ميادين نشاط جديدة، غير ميدان "الوظيفة، والمكتب والديوان."

أليس من العار أن ينال الكتاب المدرسي من عناية القائمين بقيادة التربية، ما لا ينال عشره الطالب، وذكاؤه، وأعصابه وطاقته، وسلوكه، ونفسياته واتجاهاته الطبيعية، وحريته.. ومستقبله؟..

أليس من الخطأ القاتل.. ألا يعبأ قادة التربية بتغيير القوالب والأوضاع بعد أن تغير، وتغيرت مطالبه، وبعد أن كشفت الفنون، والعلوم، والبحوث، والتجاريب الدقيقة عن نفس الناشئ، وعينت الاتجاهات التعليمية التي تجعله رجلاً وإنساناً عظيماً، وفعالاً، وقوة؟..

مما يدعو إلى الأسف حقاً أن الباحث في الفضائل والرذائل لا يتاح له الوصول إلى حقيقة قيمتها في الواقع إلا متى طالع الناس بهذه الصور الشاحبة المرعبة، كأنما همه أن يعرض شر ما في الحياة.

على أن غاية المفكر والأديب، يجب أن تكون دعوة إلى اكتشاف مسرات الحياة ومحاسنها، لأن النظرة السلبية إلى الحياة، دليل الفتور وضيق مدى الخيال.

فإذا آنس الناس منا هذا التجهم للفضائل، فليعلموا أنه ليس تجهم الكفران والإباحة والإطلاق، إنما هو تجهم الشعور بالخيبة والإخفاق، وتجهم من لا يرى بداً من الاعتراف باختلال المعتقدات التي تقود حياة الأمة والناشئين في طريق غير طريق الحياة المثلى.

إن كثيراً من مفكري الغرب وقادة الفكر فيه، يفرقون من اختلال التوازن بين قوانين الأخلاق والفضائل التي كانت خلاصة جهاد العقول، في تاريخ الإنسانية الطويل، وبين سير الحياة العام، ويهولهم هذا التنافر الظاهر بينهما. ويدركون أن التربية المدرسية السامية تذهب ضحيته، ويعرفون أن النظرة العامة إلى الفضائل لم يبق لها من القوة والتماسك، ما يدع مجالاً للأمل في مستقبلها.

ولكنهم لا يعرفون طريقة لعلاج هذه الحالة إلا طريقة الوعظ، والإنحاء باللوم والتقريع، على من يكشفون الستار عن حقائق هذه الفضائل التي تتعبد بها الأفكار هذا التعبد الشعري الفاتر.

ونعتقد أن علماء التربية البدنية وقادتها، أفادوا الفضائل أضعاف ما أفادها هؤلاء الخطباء الذين ينتهزون الفرص لإلقاء الكلمات الغامضة المطلقة الشعرية عن أحلامهم بالفضيلة، والتشريح والتشخيص، كانا دعوة موفقة إلى بث روح العفة، والاعتدال في الناس، ولما يكتب النجاح للمواعظ والتعليم والزواجر.

هناك طريقة لتربية القوة، وتربية الفضائل ظهر نجاحها للعيون، هي طريقة الصراحة والتجريد، والتربية القائمة على العمل والممارسة، لا على العظة وإثقال الذاكرة وطحنها، وإذا صعب علينا أن نخضع الناس لسلطان ألفاظ لم يبق لمدلولاتها صدى في حياتهم العامة، فإن الصراحة والاعتراف هما سبيل إعداد النفوس للإصغاء إلى أصوات الضمير والمصلحة.

لم يعد من مصلحة الحياة أن تكون النظرة إليها نظرة ارتياب وقلق ومن الحماقة أن ينزل النواح منزلة الإصلاح والجد والقوة.
فمن لا يرى أن التسليم بواقع الحياة، والتقدم لمجابهة قوانينها الصارمة، وحقائقها العارية، أمر لا بد منه لناشئة بلاد يراد لها الحياة؟..

فالتكتم والتستر على خلل بعض القواعد السائدة، والحقائق والتقاليد الموروثة وضعفها، جريمة لا يغتفرها العقل الطامع، لأنها تجر إلى الفشل والحيرة والفناء.

وليس لنا أن نفرق من مواجهة الحقائق، فمن المتوقع أن يكون مستقبل كثير من الحقائق الراسخة، والتقاليد المتحجرة والأوضاع المتصلبة، قاضياً عليها بالزوال.

ولا خسران في هذا للحياة، ولا بوار لخير ما فيها، فهذه نواميسها، أن على من يريد البقاء والنجاح أن يتذرع بالقوة، وأن ينظر إلى الحياة بعينين يقظتين، لا تراودهما الأحلام الفاتنة.

وقد كشف الطب عن أمراض مغلغلة مستعصية، في بعض الأمم، والأسر، والجماعات، والأفراد، كان التستر سبب استفحالها.

فإذا وقفت التربية المدرسية ووقفت قيادة الفكر عندنا، موقف التستر والمداورة والجبن، في مواجهة الحقائق وواقع الحياة، انتهت بنا أمراضنا النفسية والفكرية إلى اضمحلال محقق.

هذه لمحة سريعة نقيم بها المثال والمقياس فقط، ومجال الحديث فيها بعد، ما يزال واسعاً جداً.

عرفنا مما تقدم، الفضائل وجماعها، وقوامها فما عماده الذي ينهض بأعباء رسالتها، والذي يكون سلاحها وحامل لوائها؟

إنه الرجولة، ولذلك اخترنا أن يكون عنوان هذا الحديث" الرجولة عماد الخلق الفاضل" ولذلك سيكون خاتمة حديثنا، تحليلنا للرجولة.
إن الرجولة كالجمال قانونها فيها، ولذلك كانت أساس نشأة الفضائل في الأطوار الأولى التي تحدثنا إليكم عنها طويلاً.

ونحن لم نر فيما أسلفناه من دراسة وتحليل وفرض (بعد الغرائز الأصلية، وقوانين ضروراتها) أساساً لنشأة الفضائل، أو نشأة القوانين الأدبية التي نسميها فضائل إلا الرجولة التي كانت رمز القوة، والشعور بمحاسنها والميل إلى اتباعها وتقليدها.

فالقوة الجسدية بعد أن أدت رسالتها دفاعاً ومقاومة واكتساباً، وتمهيداً وبناءً وتقريراً للذات، نزعت أو انقادت انقياداً طبيعياً إلى إقامة حدود ساذجة لقوانين أدبية، كانت أشبه بفرائض اختيارية تشد من أزر الجماعة، وتجعل مدى القوة، أوسع، وأرحب غير شاعرة بأنها فضائل تتصل بدخائل النفس لوضوح اتصالها بأسباب حياتها الظاهرة.

لا نريد بهذا التمهيد أن نعتبر الرجولة فضيلة، أو قواماً لها، لأننا قد انتهينا إلى أن الحياة قوام الفضيلة، وإلى أن الرجولة عمادها، الناهض برسالتها، لكننا نريد امتحان هذا الرأي لنعرف نصيبه من القوة والصحة.

قد يكون الإنسان فاضلاً ونصيبه من حرية الفكر نصيب منقوص، ويكون فاضلاً، ونصيبه من الغيرة على الحق والجهاد له، نصيب عادي، ويكون فاضلاً بالقناعة، والعفة، والأمانة، والصدق، والجود.

لكن الرجل لا يكون تام الرجولة إلا متى أخذته نفسه أخذاً صارماً بفضائل طبعه، وأخلاقه، وإيمانه الصارم، وهذا قانونه..

فإذا لم يكن عفيفاً كان مستحياً، وإذا لم يكن شفوقاً كان حليماً وإذا لم يكن إيثارياً كان محسناً، وإذا لم يكن قنوعاً، كان شهماً، أنوفاً، وإذا لم يكن رحيماً كان عادلاً..

وقد حللنا إعجابنا بالفضائل وقلنا إنه إعجاب بقيمة شيء نرى مشقة في اكتسابه، وانتهينا إلى أن الفضائل ترمز إلى القوة، أو تقرب أن تكون محاولة قوة.

أما إعجابنا بالرجولة الناضجة، فليس إعجاباً بالقوة فحسب، بل هو إعجاب بحرية هذه القوة في أروع مظاهرها.

فالفضائل قوة بأثرها، وإشاراتها، وغلابها للنفس، لأنها اكتساب وممارسة.

ولكن الرجولة طبع وفطرة.

والفاضل يقود نفسه، أو يقسرها.

والرجل تقوده نفسه، وتقسره، ويقوده طبعه القوي وفطرته العارمة، وإيمانه الصارم.

فقوة الرجولة إذاً قوة حرة، تؤمن بحريتها، إيماناً صارماً.
ومعظم الفضائل، انحراف نفعي مستور، بمطالب النفس، وأنانيتها الخفية، وقد سبقت الإشارة الواضحة إلى هذا.

ونحن نعرف الرجل بطبعه القوي، وقانونه الصارم في نفسه، وضراوة فطرته المجردة، وباتزان خطوات هذه الفطرة، والاستجابة الاضطرارية لها.. نعرف الرجل بهذا، وقد يكون مجرداً من الفضائل الهنية المستحبة والمزايا الكسيحة.

فالرجولة قوة في ذاتها، ولكن الفضائل قوة بما فيها من سمات الشعر وشياته، فهي قوة في مجال الفتنة، لذلك كانت بواعثها تهذيبية محضة.

ومن الأمثلة التي تضرب في هذا الموقف الدقيق للتقريب، مثال رجل يملك ألفين فيجود بنصفها ورجل يملك واحداً فيجود بنصفه.

فالمقارنة المادية الجامدة تضع واهب الألف في القمة، لكن المقارنة الفكرية الدقيقة، تقدم عليه ضده، لأنه يهب مادة حياته، ومادة أمله، فما يبقى له بعدما يهب ما تصيب به الحياة أقل مطالبها، وواهب الألف يهب ما لا تفقد بعده النفس أحفل هذه المطالب.

ذاك يهب من نفسه، وهذا يهب من ذخيرته الطائلة.

ذاك تكلفه نفسه أن يهب، لأنه يستحي ألا يفعل فهو قوي وهذا يستجيب مختاراً أو مضطراً لما يجب أن يستجيب له الغني المجدود، فهو أقل قوة.

ذاك يعطي من نفسه لا ليأخذ، وهل يحلم أن يأخذ بنصفه شيئاً؟

وهذا يعطي من ماله ليأخذ.. يأخذ إكبار الناس، وبعد الصيت، والمكان المرموق، والمثل المضروب.

إذا دخل واهب الألف من باب الكرم، والتضحية الضخمة، والفتنة، دخل واهب النصف من باب الرجولة الشامخة.

ففي الحياة إذاً مسافات وأمداء ما تقاس بالذراع، لكن بمقاييس الفكر والضمير.

وأنا إذا ذهبت أقيس الرجل بصداه في جيله، فإنما قمت أقيسه بأفضل المقاييس، وأكثرها خداعاً، لأني ناظر إلى السعة الظاهرة، لا إلى العمق المتخيل.

فالرجولة هكذا تكون مقلة، ومنزورة، وتكون ضعيفة، وهزيلة، في منطق الموازين الجامدة، ولكنها القوة، والحياء.. والرحمة والعدالة.. في منطق الضمير ووزنه.

يتزحزح الفاضل بفضائله قليلاً أو كثيراً، فلا تشيل كفته الراجحة في العرف وموازينه بهذا الانحراف، لكن الرجل لا يستطيع الانحراف بهذا القانون القائم في دمه ناراً، قبل أن يقوم في نفسه مبدأ وإيماناً، فما يرضيه الحق حتى يكون حقاً كله، ولا الرحمة حتى تكون حسماً لبواعثها فيمن يستحقها، أو فيمن يلتمسها، ولا الحياء حتى تكون قوة تصدّ النفس عن مواطن الشبهات والضمائر والرذائل، وحتى يكون قوة تذهب بالهمة في أسمى معارج السمو.

ولو كان كل هذا، أو بعضه مستحيلاً في نظام الحياة المطرد.. ولو كان هذا كمال معنى الرجولة، وتمامها ونضوجها.

وهذا قانونها!

أعود بكم إلى تعريفي التمهيدي للرجولة.. فقد كان تعريفاً رمزياً، أو كان تعريفاً مدرسياً تبنى فيه النظرة على نتائجها، التي هي الأسباب مجتمعة، ولكنها ليست النظرة مفصلة.

قلت إن الرجولة مجموعة من الصفات الرائعة، في الرجل الرائع.

أما الرجل الرائع فهذا الذي جردت لكم الحديث عنه، وأقمت صورته عارية. وأما الصفات الرائعة فهي: القوة، الجمال، والحق. القوة تقابل الحياء. والجمال يقابل الرحمة، والحق يقابل العدالة .فالرجولة إذاً قوة وجمال وحق هذا قانونها وهو قانون الحرية أيضاً وهو قانون الإنسانية السامية أما الفضائل فجمال فقط.

أحسبكم لا تجدون صعوبة في موافقتي على تجريد الفضيلة من القوة دون الحق، ولكني أجردها من الحق أيضاً.

وأنا لا أمتهن الفضيلة بهذا التجريد القاسي، ولا أغض من قيمتها إنما أريد التحديد، فإذا كانت الفضيلة تهب لتأخذ، لم تكن قوة، ولو كان هذا الأخذ من وراء ستوره الكثيفة، لذة فكرية، أو متاعاً نفسياً، أو مطلباً فكرياً..

وإذا لم تكن الفضيلة إيماناً صارماً بالتضحية، والجهاد الصادق للحق والعدالة، لم تكن حقاً، ولو بقيت بعد جمالاً ظاهر الفتنة للعيون، وصوفية تغذي المشاعر، ولا تكون الضمير.

وهنا موضع التحرز من خطأ، فلقد قلت في مطلع حديثي إن الرجولة في الطور الأول للحياة كانت صفة القادرين على الاحتيال لتوفير الطعام وإقامة المأوى الواقي، وهي بهذا التحديد تكون مزية سابقة في نشأتها لنشأة الفضائل، أو السجايا، التي لا يجيء دورها في النشأة منطقياً إلا بعد اتساع أفق الحياة، وتشعب مسالكها.

وقلت إن الغرائز في الإنسان مصدر أنانيته، وإن الإنسان، الغريزي لا يتعدى حدود ذاته، فلسائل أن يسأل، كيف كانت الرجولة طبعاً وفطرة، وقانوناً في الدم، وقد كانت أنانية.

والجواب على هذا السؤال، أن الرجل أناني لا شك في ذلك، ولكنه في هذه الأنانية عادل فهو ما يرضى أن ينال حقه، حتى ينال كل حقه، وحتى يكون الحق مبدأ عاماً لحياة الجماعة، تساهم النفس في الجهاد له بأقصى قواها، وبكل دوافعها، وليست لها من وراء هذا الجهاد لذة ولا متاع، يتجلى هذا في دعاة الإنسانية، وفي الفلاسفة، وفي قادة الفكر، والفنانين الموهوبين، والعباقرة، ورجال الثورات، والعلم والطب والإصلاح، في أولئك الفقراء الضعفاء المشردين، الذين تتنكر لهم الحياة حتى ما تبض بقطرة، ويتنكر لهم الناس حتى ما يعرفون الرحمة، فإذا أصابوا من دنياهم شيئاً، فإنما يكون القليل.

أولئك الذين يعد الفرد منهم حدثاً بشرياً هائلاً، وعاملاً من أقوى عوامل الطبيعة... لأنه جزء من تاريخ الحياة الجاهدة، أو جزء من تاريخ الإنسانية.. أو جزء من تاريخ أمته.

إن الحياة لا تحابيهم بالنجاح الترابي إلا نادراً، لأنهم يحتقرون التراب، إنما تحابيهم بصفحاتها الذهبية اللامعة، لا لأنهم الشذوذ والندرة، بل لأنهم الرجال الذين يقيمون مأتم الحياة، وأعيادها، ويقودون مواكبها، وجحافلها.. والذين يعملون للحياة، بالحياة، أو بالموت، ومثلهم الأعلى الحياء، الرحمة، العدالة، أي القوة، الجمال، الحق، أي الرجولة.

ولا أدري مَن مِن المفكرين قال إن الرجل العظيم طفل، لأنه لا يتصرف بقوته تصرفاً ينطبق على مقاييس العقول الراجحة، ففي هذا القول إشارة إلى أن الرجل إذا أخذته نفسه بقانون الحق والاستجابة للأعمال العظيمة الخالدة. لم تكن التضحية عنده شيئاً اختيارياً يسير فيه على قواعد المنطق المرتب، والرغبات الموزونة، إنما يكون مغلوباً على أمره، إزاء قوة خفية فيه.

فسعد زغلول لم يكن أفضل المصريين خلقاً، ولا أعظمهم مواهب، ولا أكبرهم فكراً، ولكنه كان أكثرهم عناداً وتطرفاً وإصراراً على تحقيق ما يعمل له كاملاً، فهو أكثرهم رجولة.. كان يطمع في الاستقلال التام، ولا يرضى بالحلول الجزئية على أنها النهاية التي لا يبقى بعدها مجال للسعي والمطالبة.

ولو شاء أن يرضى بربع الاستقلال أو بنصفه، لطابق بهذا منطق العقل والسياسة، ولكنه لم يكن يرض أن تكون أمته ربع أمة.. فهذا مظهر أنانية الرجولة..

وسقراط في منطق العقل، طفل لأنه شرب السم مختاراً لئلا يتقهقر عن مبدئه.. فهو رجل يقهره دمه، وقانون قوته، على ألا يصانع فيما يراه حقاً لازماً..

ومن ينكر أن فلسفة العقل متى تسلطت على وزن الحقائق وتحقيقها، أفقدتها كثيراً من طبيعة إيجابها وتأثيرها؟

فلو لم تكن الرجولة قانوناً في الدم وفطرة، لما عدت طفولة لا تعبأ بنفسها في سبيل استجابتها لمطالب قوتها القاهرة.

ها نحن نرى أمة. أمة نكرة بين الأمم يعجزها النهضان، ويصرفها لهوها بالفضائل، عن انتهاج سبيل القوة والارتقاء، وسبيل الحياة والسمو، فأين القوة والجمال والحق تأخذ بيدها؟
أين الرجولة تأخذ بيدها، وتقيل عثراتها؟
الرجولة التي كانت رمز القوة الفعالة في الإنسان القديم!

ورمز سجاياه ومحاسنه في أولى وثباته إلى التطور!

ورمز الحياء والرحمة والعدالة في فجر مدينته المنبثق!

ورمز المبدأ للعربي يوم نهض بأعباء رسالته التاريخية!

أين الرجولة تأخذ بيدها وتقيل عثراتها؟

الرجولة التي ورثها الصحابي الرجل، عن أبيه العربي الرجل، عن جده القديم الرجل، فكانت عماد مبدئه الإنساني الذهبي.

الرجولة التي كانت النار المندلعة، والثورة الجانحة في دماء صحابة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي دماء أعوانه، وأنصاره، على الجهاد للحق والقوة والمبدأ.

الرجولة التي طبعت كل شيء حولها بطابعها الجبار.

الرجولة التي دوت بها صرخة قائد البشرية الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، فاقترع بها قمة المثل العليا، يوم قال: "والله يا عم. لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله، أو أموت دونه"!

هكذا يقول قائدنا الكامل البطل، بل قائدنا الكامل الرجل.

فهذه رجولة رجل، قبل أن تكون فضيلة نبي، وقانون دم قبل أن يكون سمة خلق فاضل، وعقيدة مؤمن يستهين الموت في سبيل التراجع المفروض عليه دونها، غير ناظر إلى الجزاء.

هذه قوة، وجمال، وحق، حياء، ورحمة، وعدالة.
حياء من الهزيمة في الحق.

ورحمة للجاهلين بالحق.

وعدالة تأخذ للحق بالحق.

ألا فلتكن دستورنا، كلمة قائدنا الكامل الرجل، لتكن فينا فضيلة الفاضل، وغيرة الغيور، ومبدأ المصلح، وفكرة الأديب وعقيدة الوطني الحر، جهاداً يظهره الله، أو نموت دونه..

ولا تكن فضائلنا وأخلاقنا، ألاعيب يتنكب بها ميادين الجهاد والنهوض بأعبائه، ولا فخاخاً تقتنص بها اللذة والصيت، والفتنة، ولا أملاً مطمئناً نخلد به إلى الراحة والهدوء.

ألا فلا تكن الفضيلة إيماناً، بل مسمى صادقاً لإظهارها، ونشر لوائها، فما تكون الفضيلة استقامة، حتى تكون مبدأ يظهره الله أو نموت دونه..

ألا وإن في عنق كل منا رسالة، لا تتم الأمانة إلا بأدائها، وبإقامة منارها، وبالكفاح لنصرتها، ودحض نقائضها.

ألا وإن تاريخ كل أمة حية يقيم اليوم عيده البهيج.. فهل ترضى رجولة الرجال في هذه الأمة أن يقيم تاريخها مأتمه الباكي؟..

سادتي -إخواني ردّدوا معي:

أين التربية.. أين المدرسة.. أين الرجولة.. لتعرفوا لماذا يقيم تاريخنا مأتمه الباكي؟